obeikan.com

حلقات مفرغة

الكتاب: حلقات مفرغة
المؤلف: أيمن فاروق طه
الطبعة: الاولى ٢٠١٣
رقم الإيداع: ٢٠١٣/١٩١٤٧
الترقيم الدولي: ٩- ٠٧ – ٦٤٤٥ – ٩٧٧ - ٩٧٨
إشراف عام: آية عفيفي
مراجعة لُغوية: صهيب إبراهيم
غلاف: NileDesign.com

كامل حقوق النشر والطبع محفوظة
دار الإبداع للنشر والتوزيع
موقع دار الكتب الإلكتروني
العنوان: مدينة نصر – ٤٠ شارع أبو داود الظاهري
هاتف: ٠١٠٠٢٠٥٢٢٦٦
E-mail: info@daralkotob.com
www.daralkotob.com

obeikan.com

حلقات مُفرغة
"مجموعة قصصية"

تأليف: أيمن فاروق طه

موقع دار الكتب

obeikan.com

obeikan.com

"الإهداء"

إلى كلِّ من وقف بجانبي وآمن ببصيصٍ من موهبةٍ لدي، إلى كلِّ من شجعني في لحظاتِ الانكسارِ والإحباطِ والتردد، إلى كلِّ من رأى فيما أكتبُ ما يستحقُّ النشرَ والمشاركةَ مع الغير، إلى كلِّ من ساعدني في عملياتِ المراجعةِ اللغويةِ والتصميمِ والطباعة، إلى كلِّ من أبدى رأيَه في المحتوى وأمدَّني برأيٍ أو نصيحةٍ أو انتقادٍ أو مدح، إلى كلِّ من سيقرأُ ويصبحُ جزءًا من الكتابِ فكرًا وفكرةً وحدثًا، إليكم جميعًا أهدي هذا الكتاب.

obeikan.com

"تقديم وتعريف"

كثيرًا ما نعيشُ حياتَنا في حلقاتٍ مفرغةٍ لا نكادُ نستطيعُ الخروجَ منها أو التحرُّرَ من سيطرتِها، قد تكون دوائرًا لها علاقةٌ بمكانٍ ما أو زمنٍ ما أو شخصٍ ما أو حدثٍ ما، أو فكرةٍ ما زُرعت بداخلنا ولا نستطيعُ الخروجَ من شرنقتِها، أو رابطٍ ما لا نستطيعُ التحرُّرَ من قيودِه، أو حتى بأنفسِنا جسدًا وروحًا.

نختلقُ تلك الدوائرَ أو تُفرضُ علينا، ثمَّ نعيشُ بداخلها، نفرحُ بها أولًا ثمَّ نشكو منها، أو نشكو منها ثمَّ نستسلمُ لها فرحين. كثيرًا ما نحاولُ التحرُّرَ في حين أنَّ القيدَ - لا شعوريًّا - يسعدُنا، وكثيرًا

ما نبحثُ عن قيدٍ ليحمينا من الحريَّةِ التي جُبلت أرواحُنا على عشقِها. نصارعُ أنفسَنا والآخرين والدنيا ونحن - غالبًا - لا ندري ما نريده حقًا، ولا تواتينا الجرأةُ للبحثِ عنه... لذلك يعيشُ معظمُنا في... حلقاتٍ مفرغة.

أيمن فاروق طه

٢٠١٣

Facebook.com/Ayman.Farouk.Taha

obeikan.com

"كلُّ القصصِ والشخصياتِ والأحداثِ الواردة في هذا العملِ الأدبي هي من خيالِ المؤلف وليس لها علاقة بالواقعِ مطلقًا"

obeikan.com

obeikan.com

"فكرة!"

استيقَظَ "راسخ" في السابعةِ صبَاحًا، اتَّجَه مُسرِعًا إلى مدرَسَتِه حيثُ يعملُ مُدرسًا للتربيةِ الفنية في إحدى المدارسِ الثانويةِ منذُ ثلاثة وعِشرينَ عامًا، وفي تمامِ الثامنةِ والنَّصفِ بَدأَ حِصتَهُ الأُولَى.

كَان مَوضُوع درس اليومِ هو "رسمٌ من الطبيعةِ"، حيثُ طَلَبَ "راسخ" منَ الطُّلابِ أَنْ يَقُومُوا بِرسمِ مَنظرٍ طَبيعيّ، لكنَّه حَذَّرَهُم مِن ضَرُورةِ عَدمِ رسمِ أيَّ أشخاصٍ لأنَّ ذَلكَ قَد يُعتَبَرُ مُخَالفةً شرعيةً، كمَا نَبَّهَهُم أيضًا إلى أنَّه يُستحسَن عدمُ رسمِ أيَّة حيواناتٍ لضمانِ عدمِ الوُقوعِ في مَا قَد يمكنُ إدراجُه تحتَ بندِ "المكروهِ شرعًا". وفِي نِهايةِ الحصةِ طلب "راسخ" مِن الطُّلابِ أن يُسلِّموا رسُوماتِهم، وبعد أَن تَفَحَّصَها سريعًا لاحظ أنَّها تَكَادُ تكون مُتشابِهةً إلى درجةٍ كبيرةٍ وخاليةً من أيّ تَميُّزٍ أو إبداعٍ، كمَا جَاءت خَالِيةً تمامًا من الأفكارِ لدرجةِ أنَّه لم يستَطِع أن يُريها لزملائِه

مُدرسي التربيةِ الفنيةِ الذين يتبَاهون بعرضِ أعمالِ طُلابِهم المُميزة. فكَّر لبرهةٍ من الزمنِ وسأل نفسَه سؤالًا واحدًا كثيرًا ما طرحه على نفسِه دون أن يحاولَ الإجابةَ عليه: لماذا تأتي رسوماتُ طلابِه دائمًا متشابهة وخالية من الإبداع؟

بعد انتهاءِ الدوامِ المدرسيّ، اتَّجه "راسخ" إلى وظيفتِه الثانية، حيثُ كان يعملُ مساءً - منذُ عامٍ واحد تقريبا - في إحدى شركاتِ الدعايةِ والإعلانِ الصغيرةِ موَظفًا في قسمِ التصميمِ والابتكارِ.

كان قَد طلبَ منه مديرُه -وهو شابٌ في الثلاثينِ من عمرِه- تصميمَ عدَّةِ بدائِل لتَخطيطِ حملةٍ إعلانيةٍ لأحدِ منتجاتِ العنايةِ بالشعرِ للسيداتِ. وكانَ قد بدأَ بالفعلِ في إعدادِ ثلاثةِ بدائلٍ لهذه الحملة، ثمَّ عرض الأفكارَ الأوليةَ على مُديرِه الذى أبدى عدمَ إعجابِه بها نتيجةَ التشابهِ الشديدِ فيما بينها بحيثُ بدت وكأنَّها بديلٌ واحد، وجاءَ تعليقُ المديرِ في جملةٍ مقتضبةٍ: أنت لم تعرض أفكارًا جديدةً هنا يا "راسخ"، إنَّها فقط فكرةٌ واحدةٌ قديمةٌ ومستهلكةٌ! فانصرف "راسخ" بعد أن طلبَ من المديرِ مهلةَ يومين لإعدادِ مقترحاتٍ أفضل وقد وافَق المديرُ على مضض.

عاد "راسخ" إلى منزله مُرهقًا، كانت الساعةُ حوالي العاشرة مساءً، أخذ حمامًا سريعًا ثم تناول طعامَ العشاءِ مع زوجتِه وبناتِه. كان شاردَ الذهنِ غيرَ قادرٍ على التركيزِ ولكن في نفسِ الوقتِ كان غيرَ قادرٍ على النوم.

وبعد منتصفِ الليلِ بساعتين، وفي صمتِ الليلِ وسُكونِه، قرَّر "راسخ" أن يخرجَ من البيتِ للتنزهِ قليلًا بعد هذا اليومِ الحافِل. كان شديدَ الإرهاقِ بدنيًّا وذِهنيًّا لذلك كان يمشي بخطواتٍ بطيئةٍ متثاقلة، وقد ساعده ذلك على الاستمتاعِ بنسماتِ الهواءِ العليلِ الذَّي يهبُّ في ليلِ "القاهرةِ" السَّاحرِ في مثلِ هذا الوقتِ من شهرِ أكتوبر، كما كان ضوءُ هلالِ القمرِ الخافت في هذهِ اللَّيلةِ يُضفِي على الجوِّ العامِ حالةً من السكينةِ والهدوءِ.

أخذ "راسخ" يمشي محاذيًا لسورِ الحديقةِ القريبةِ من منزله، كانت الشوارعُ خاليةً - تقريبًا - من المارةِ والسياراتِ وكان "راسخ" يمشي وحدَه على الرَّصيفِ المُحاذي للحديقةِ، وأخذَ يسترجِعُ أحداثَ يومِه ثمَّ أحداث حياتِه بشكلٍ عام، كان يفكرُ في طريقةٍ للتقدمِ بها للأمام في حياتِه حيثُ كان أداؤُه في التدريسِ

عاديًّا جدًا وباهتًا وكان أداؤُه في وظيفةِ الدعايةِ والإعلانِ في الحدودِ الدُّنيا، حَاول أن يفكرَ فيما يمكنُ عملُه لتطويرِ نفسِه وتحسينِ أدائِه، فقد كان يشعرُ دائمًا أنَّ أمامَه حائطًا أو سورًا زجاجيًا يمنعُه من التقدمِ ويكادُ يمنع ذهنَه من الابتكارِ ويثني عقلَه عن التفكيرِ ويمنعُ حواسَّه من العملِ خارج حدودٍ صارمةٍ ضيقة.

وبينمَا هو يمشي بخطواتِه البطيئةِ في هذه الأضواءِ الخافتةِ محاولًا التفكير في طريقةٍ يتحركُ بها للأمامِ، وجدَ أنَّه قد وصَل إلى نهايةِ سورِ الحديقةِ ففكر في الانعطافِ يسارًا ليظل سائرًا بمحاذاةِ الحديقةِ ويستمتع بهوائِها النقيّ ونسيمِها المنعش، وبالفعلِ انعطف يسارًا، وبعد عدَّةِ خطواتٍ اكتشفَ أنَّ هذا الطريقَ يكادُ يكون بلا إضَاءةٍ على الإطلاقِ إلَّا من بعضِ ضوءِ هلالِ القمرِ الذي يتسرَّبُ إلى الطريقِ والحديقةِ من بين العماراتِ الشاهقةِ والمظلمةِ في هذا التوقيتِ، ولكنَّه لم يمانِع في ذلك واعتبر أنَّ قلَّةَ الإضاءةِ مع الهواءِ النقيّ وهدوءِ الليلِ عواملٌ مساعدةٌ لهُ على الاسترخاءِ ومحاولةِ التفكيرِ الهادِئ. وبعدَ عدَّةِ دقائقٍ بَدأَ عقلُه يذهب إلى منطقةٍ بها مزيدٌ من الاسترخاءِ

والسكينةِ ثمَّ فجأةً بدا وكأنَّه يرى شيئًا ما قريبًا جدًا منه ويكاد يصطدمُ به، شيئًا ما وكأنَّما خرجَ من رأسِه وذهنِه، أغمضَ عينيه وفتحهُما عدَّة مراتٍ وفركَهُما بأصابِعه، وتحرَّك خطوتين للوراء، فبدا له وكأنَّه يرى شابةً صغيرةً -فتاة- في نهايةِ عمرِ المراهقةِ تقريبًا، متوسطةِ الجمالِ والطول، محافظةَ الثيابِ، عاديةً جدًا، ليس بها أيَّة ملامحٍ مُميزة. اندهش من هذه الفتاةِ التي تتواجدُ وحدَها في هذا المكانِ وفي هذا التوقيت، كما ازداد تعجُّبًا من ظُهورِها المفاجئ حيثُ أنَّه كان متأكدًا من أنَّ الطريقَ خاليةٌ تمامًا وليس بها أيُّ إنسانٍ أو حتى سيَّارة.

نظر إليها فنظَرت إليه، تفحَّصها مهتمًا فتفحَّصَته مُتعجِّبةً، قال لها بترددٍ: مساءُ الخيرِ.

فأجابَته بثقةٍ: مساءُ النُّور.

فصَمَت قليلًا وقال لها: عفوًا... لقد كدتُ أن اصطدِمَ بكِ ولكنَّني فعلًا لم أَلحَظ وجودَك، لعلَّني كنتُ شاردَ الذِّهنِ عن الطريق، فقد كنتُ أحاولُ التفكير في عدَّةِ مواضيعٍ تشغَلُني.

فأجابَته بابتسامةٍ: لا عليك... فأنتَ فعلًا تبدُو شاردَ الذِّهنِ.

فقال لها: هل تريدينَ منّي أن أصحَبَكِ إلى مكانٍ ما؟ فالوقتُ متأخرٌ وأخشَى عليكِ المشيَ وحدَكِ الآن.

فنظرَت إليهِ وأجابتهُ بسؤالٍ: وهل أنتَ ذاهبٌ إلى مكانٍ محددٍ؟

فأجاب: لا، فقد كنتُ فقط أتنزَّه.

فقالت له: حسنًا، تستَطيعُ أنتَ أن تُكمِلَ طريقَك وسأمشي أنا خلفَك بخطوةٍ أو خطوتين وبذلكَ لا أقطعُ عليكَ نُزهتَك وفي نفسِ الوقتِ لا أكونُ وحيدةً في هذا الوقتِ المتأخرِ.

فأعجبتهُ الفكرة وقال لها: حسنًا، ثم أردفَ: بالمناسبة... أنا اسمي "راسخ"... وأنتِ؟

فأجابَته بابتسامةٍ بها قدرٌ كبيرٌ من التعجبِ: هل تريدُ أن تعرفَ اسمي؟!

فقال لها: إن لم يكُن لديكِ مانِع.

فأجابَت ضاحكةً: اسمي "فكرة"!

أَخذ "راسخ" يمشي وهي تمشي وراءَه بخطوةٍ أو اثنتين، وبَعد عدَّةِ دقائقٍ لاحَظ "راسخ" أنَّها لا تنظُر إلَّا إليه ولا تُحرك عينيها من عليه، فتعجَّب من هذا الوضعِ، كمَا لاحَظ التشابُه الكبيرِ بين ثيابِه وثيابِها سواءً في اختيارِ الألوانِ الدَّاكنةِ أو الأسلوبِ التقليديِّ

للملبس، وفجأةً مرَّت سيارةٌ مسرعةٌ بجوارِهما فتعجَّب من أنَّ "فكرة" لم تَنظُر إليها مطلقًا ولم ترفع بصرَها وتركيزَها من عليه.

أحسَّ "راسخ" بارتباطِ "فكرة" الشديدِ به، وفسَّر ذلك بأنَّه ربَّما بسببِ خوفِها من التواجدِ وحدَها في هذا الوقتِ المتأخرِ وكذلك بسببِ إحساسِها بالأمانِ معَه، وأنَّه ربَّما تسبب كل ذلك في تولدِ الإحساس لديها بأنَّه هو الذي أعطاها الحياة!

بعد عدَّةِ دقائقٍ أحسَّ "راسخ" بالوحدةِ فقرر أن يمشي إلى جوارِ "فكرة" وليس أمامَها، لعلَّه يستطيع تبادلَ الحديثِ معها فيكسِرُ بذلك حدَّةَ وحدتِه وأيضًا يهدئ من روعِها ويقلِّل من خوفِها -اللذان افترضَهما-، فقد كانت في عمرِ بناتِه ممَّا جعله يحسُّ بالشفقةِ عليها.

فقال لها بشكلٍ مباشرٍ مقتضب: سأمشي بجانبِك.

فأجابته: حسنًا... إذا كان ذلك لا يزعجُك!

وبالفعلِ مشى "راسخ" بجانبِ "فكرة" بعد أن كان يمشي أمامَها، وبدأ "راسخ" في التحدثِ معها عن عمرِها ودراستِها وأهلِها، وكان يُخفي اندهاشَه من التشابهِ الكبيرِ في الظروفِ بينهمَا كمَا لو كانا جيران أو أقارب. ومع مرورِ الوقتِ بدأ "راسخ"

في توجيهِ بعضِ النصائحِ إلى "فكرة" فيمَا يتعلقُ بحياتِها ودراستِها وخططِها للمستقبل، فقد أحسَّ "راسخ" بأنَّه مسئولٌ عنها -بطريقةٍ أو بأخرى- ربَّما بسببِ تعلُّقِها الغريبِ به أو بسببِ صغرِ سنِّها أو بسببِ حمايتِه لها أو ربَّما بسببِ كلِّ ذلك معًا.

ولَّد إحساسُ "راسخ" بالمسئوليةِ تجاه "فكرة" رغبةً لاشعوريةً لدَيهِ في السَّيطرةِ عليها فأخذ يعطيها النصيحةَ تِلو النصيحةِ والرأيَ بعدَ الرأيِ والتوجيهَ يعقبُه توجيهٌ، كلُّ هذا وهي مستسلِمةٌ تمامًا لمَا تسمعُه منه وموافقة تمامًا على كل ما يقوله لها ومطيعةٌ للغاية لكل ما يطلبه منها.

كان الطريقُ قد وصل إلى نهايتِه وأصبح لا بدَّ لهمَا من الاستدارةِ يسارًا مرةً أخرى إذا أرادَا الاستمرارَ في السَّيرِ بمحاذاةِ الحديقة. وبالفعلِ انعطفَا يسارًا. كان الطريقُ المحاذي لهذا الجانبِ من الحديقةِ أكثرَ إنارةً من سابقَيهِ، حيثُ كانت أعمدةُ الإنارةِ تعملُ بكاملِ طاقتِها بالإضافةِ إلى الإضاءةِ القادمةِ من عدَّةِ محلاتٍ كانت لا تزال مفتوحةً في هذا الوقتِ المتأخرِ.

وبعد أن مشيَا عدةَ دقائقٍ معًا في هذا الطريقِ سألته "فكرة" عن هذه المحلاتِ المفتوحةِ حتى الآن وعن سببِ ذلك. لاحظ

"راسخ" أنَّ هذهِ أولُ مرةٍ تبادرُ "فكرة" بسؤالِه، حيثُ اعتادَا دائمًا أن يكون هو الطرفَ الذي يسألُ وينصحُ ويوجّهُ ويقودُ الحديث. أجابَها عن سؤالِها بأنَّ هذه المنطقةَ بها الكثيرُ من السيَّاحِ العربِ الذين يحبُّون السهرَ إلى وقتٍ متأخرٍ من الليلِ، وبالتالي يقومُ أصحابُ هذهِ المحلاتِ بتأخيرِ موعدِ إغلاقِها للاستفادةِ من مشترياتِ هؤلاءِ السيَّاحِ. ولكنَّ "فكرة" لم تبدو مقتنعةً بهذهِ الإجابةِ وطلبَت منه أن تَعبُر الشارعَ لكي تشاهدَ وتقترِبَ من المحلاتِ المفتوحةِ وترى بنفسِها.

فتعجَّب "راسخ" من ردِّ فعلِها، فالموضوعُ لا يستحقُ هذا العناءَ أو حتى مجرد التفكير فيه أكثرَ من مرةٍ، وبدَا مُمتعِضًا من طلبِها، وقال لها: إنَّه لا يرى داعيًا لذلك وطلبَ منها أن تُواصِلَ السَّيرَ معهُ، ولكنَّها اعترضت! تعجَّب "راسخ"، فقد كانت هذهِ أولَ مرةٍ تعترضُ فيها على أيِّ شيءٍ يقوله.

فقال لها: لا يحِقُّ لك الاعتراضَ على ما أقول فأنا مسئولٌ عنكِ وعن حمايتِك.

فأجابته: أنت لم تعُد كذلك، فالطريقُ هنا مضاءةٌ وليست مظلمةً كما أنَّني ربَّما لا أحتاجُ إلى حمايتِك!

فازداد "راسخ" تعجُّبًا من ردّها عليه وتساءل في نفسِه: ما الذي تغيَّر؟ ما الذي غيَّرها؟ فقد كان يعتبرُ مسئوليتَه عنها وحمايتَه لها -وربَّما امتلاكَه لها- من المسلماتِ. وازداد اندهاشُه عندما وجدَها تعبرُ الشارعَ -وحدَها- لكيّ تشاهدَ المحلاتِ المفتوحةَ وتعرفَ سببَ بقائِها مفتوحةً في هذا الوقتِ المتأخرِ بنفسِها.

وقف يشاهدُها من الجانبِ الآخرِ للطَّريقِ وهو غيرُ مصدقٍ لما يحدثُ، وجدها تدخلُ المحلاتِ وتتحدثُ مع أصحابِها وروَّادِها، وبعد نصفِ ساعةٍ خرجت من آخرِ هذهِ المحلاتِ، كانت تبدو أكبرَ عمرًا وأكثرَ نضجًا وملامحُها أكثرُ ثقةً، كانت تبدو وكأنَّها كبُرت عدَّةَ سنواتٍ في هذه النصفِ ساعة، كما فوجئ بأنَّها غيَّرت ثيابَها واستبدلتها بثيابٍ أكثرَ تحررًا وعصريةً فازداد تعجُّبُ "راسخ" ممَّا حدث ويحدث!

وقف مشدُوهًا يشاهدُها وهي تعبرُ الشَّارعَ باتجاهِه مرتديةً فستانًا فضيًّا يتلألأ تحتَ أضواءِ مصابيحِ أعمدةِ إنارةِ الشارعِ وأضواءِ السياراتِ والمحلاتِ وبعضِ ضوءِ هلالِ القمر. بدت حالتُها الآن أفضلَ بكثيرٍ من حالتِها قبلَ أن تتركَه منذُ نصفِ ساعةٍ، ثمَّ عبرت الطريقَ ووصلت إلى حيثُ كان واقفًا.

قالت له: المحلاتُ هنا لا تعمل اعتمادًا على السيَّاحِ العربِ إنَّما تعملُ اعتمادًا على موظَّفي الفترةِ الليليةِ للقنواتِ الفضائيةِ والاستديوهاتِ المحيطةِ بالمنطقةِ وكلُّ روادِ هذه المحلاتِ والمطاعمِ والمقاهي هم من المصريين.

تعجَّب "راسخ" كثيرًا ممَّا حدث، فقد كان مخطئًا وتمكَّنت هذه الفتاةُ الصغيرةُ من الاعتراضِ عليه ثمَّ تمكَّنت من الوصولِ للصَّواب.

تحرَّكت "فكرة" حتى أصبحت بجانبِ "راسخ" ثمَّ أخذَا يكملانِ السَّيرَ في ذاتِ الاتجاهِ واستأنفَا أحاديثَهما، ولكن هذه المرَّة كانت "فكرة" تناقشُ "راسخ" في كلِّ شيءٍ وتعترضُ عليه كثيرًا وتجادلُه في كلِّ محورٍ من محاورِ النقاش.

وبعد فترةٍ أدركا أنَّهما قد وصلا إلى نهايةِ هذه الطريقِ ولا بدَّ لهما من الاستدارةِ يسارًا إذا أرادَا الاستمرارَ في السيرِ بمحاذاةِ الحديقةِ وبالفعلِ انعطفَا يسارًا مرةً أخرى.

كان هذا الطريقُ الأكثرَ إنارةً من كلِّ سابقيه والأكثرَ ازدحامًا -نسبيًّا- بالنَّاس. وبعد أن مشيَا عدَّةَ دقائقٍ معًا يتحاورانِ ويتناقشانِ نظر "راسخ" إلى "فكرة" ففوجئ بما يرى، لقد تغيرت تمامًا عنها عندما رآها أولَّ مرةٍ منذ ساعتَين تقريبًا، إنها الآن تبدو

وكأنَّها امرأةٌ ناضجةٌ في الثلاثيناتِ من العمرِ، واثقةٌ، هادئةٌ، غيرُ مضطربةٍ، وكان هناك بريقُ أملٍ وإقدامٍ في عينيها، تعجَّب "راسخ" ممَّا يحدثُ ووقف مذهولًا، فتقدمت "فكرة" بخطوتين عنه.

وقالت له: هيَّا بنا نواصلُ السيرَ.

فحاول "راسخ" أن يتقدمَ بمحاذاتِها، فسبقته معترضةً وقالت له: منذ الآن أنا التي سأقودُ المسير!

فرفض "راسخ" بحدةٍ قائلًا: هل جننتِ؟ أنا الذي كنتُ مسئولًا عنك منذُ ساعتين فقط! أنا الذي كنتُ أقوم بحمايتِك! أنا الذي أعطيتُك الحياةَ أصلًا!

فأجابته قائلةً: ربَّما تكونُ أنت قد أعطيتني الحياةَ ولكنَّني منذ جئتُ إلى هذه الحياةِ وأنت تحاولُ السيطرةَ عليّ والتحكمَ فيّ، ولم تدرك أنَّني أصبحتُ كائنًا حيًا مستقلًا بمجردِ إعطائِك الحياةَ لي، ولم تدرك أنَّ تحكُّمَك فيَّ يقتلُني، ولم تدرك أنَّ حرّيتي فقط هي التي تمنحُني استمراريةَ الحياةِ، ولم تدرك أنَّ تفاعلي مع الآخرين ومع المحيطِ هو الذي يمنحُني النضجَ، كما لم تدرك أنَّ تحدياتيَ المتحررةَ لذهنِك المحافظِ هي التي تمنحُني هذا الجمالَ.

اعترض "راسخ" مرةً أخرى قائلًا: أنتِ لن تقوديني أبدًا!
فأجابت ضاحكةً: أنا قد أقودك أو لا أقودك، وقد أقود غيرَك أو لا أقوده، وربَّما قد أقودُ العالمَ كلَّه، ولكنَّني في جميعِ الأحوالِ حرةٌ طليقةٌ، أمَّا أنتَ فستظل أسيرَ ذاتِك إلى الأبدِ ما لم تتبعني.
فأجابها قائلًا: وما الذي يجعلُكِ متأكدةً أنَّ الطريقَ الذي ستقوديني إليهِ سيكونُ هو الصوابَ؟
فأجابت: لستُ متأكدةً طبعًا، ولكنَّني كالطَّيرِ أسافرُ، ربَّما من مكانٍ إلى مكان، وربَّما من إنسانٍ إلى إنسان، وربَّما من زمانٍ إلى زمان، إلى أن أصل إلى يقين، أمَّا أنت فإن لم تتبعني في سفرِي فسيظل عقلُك في مكانِه وذهنُك في زمانِه وجسدُك في محيطِه، دونَ يقينٍ إلَّا ما قد قيل لك ودونَ فكرٍ إلَّا ما قد علَّموك إيَّاه، وانظر إلى حالِك في عملِك لتعرفَ مرادي.

ساد بينهما صمتٌ لعدةِ دقائقٍ، وهنا قررت "فكرة" التحرُّكَ لكي تضعَه أمامَ الأمرِ الواقعِ ولكي تُحفزَه على اتخاذِ القرار، فأخذت تمشي عدَّةَ خطواتٍ ولكنَّه ظلَّ متسمرًا في مكانِه.
نظرت إليه بشفقةٍ وقالت له: تعال معي، فالحريةُ لا تقدرُ بمالٍ ولا تقارنُ باستقرارٍ عقليّ زائف.

لم يجد ردًّا ولكنَّه استمر متسمرًا في مكانِه، وأخذت تمشي وتتقدم وتبتعد عنه تدريجيًا حتى اختفت عن ناظريه. وبعد عدَّةِ دقائقٍ شعر ببعضِ الندمِ فقد كان هو من أعطى "فكرة" الحياةَ وقام بحمايتِها ثم بعد ذلك تركها ترحل، حاول أن يركضَ ليلحقَ بها لعلَّه يقنعها بالبقاءِ معه والقبولِ بما هو عليه، أو لعلَّه تمنَّى أن تُقنعَه هي بالذَّهابِ معها إلى حيث تجاربِ البشرِ وحكمةِ الزَّمنِ وأسرارِ الأماكن، ولكنَّها كانت قد اختفت تمامًا، رحلت وتركته... كما هو.

"خوف من الحلم"

كانت عقاربُ الساعةِ تشيرُ إلى السابعةِ مساءً عندما دخل "أحمد" إلى إحدى القاعاتِ، في أحدِ أضخمِ وأفخمِ الفنادقِ ذات الخمسِ نجومٍ في "القاهرة".

نظر إلى الطاولاتِ فوجد طاولتين متجاورتين غير مشغولتين في أحدِ جوانبِ القاعةِ، فاختار الأبعدَ عن الناسِ وجلس عليها، ثمَّ اتصل بشريكِه وأخبره أنَّه وصل وفي انتظارِه، فأجابه شريكُه بأنَّه سيصلُ في غضونِ ثلاثين دقيقةً لأنَّ الطريقَ من المصنعِ -الذي يملكانه- إلى "القاهرة" مزدحمةٌ ومختنقةٌ تمامًا، فأجابه "أحمد" بأنَّه سيكون في انتظارِه ولا توجد مشكلةٌ في ذلك.

كان "أحمد" من أصحابِ المواعيدِ المنضبطةِ وهو لا يحبُّ التأخيرَ مطلقًا، سواء عن ميعادٍ قَطَعه هو أو قطعه أحدٌ له، لكنَّه كان يعرفُ تمامًا أنَّ الطريقَ من مصنعِ الزجاجِ في مدينةِ

obeikan.com

العاشر من رمضان إلى "القاهرة" هي طريقٌ لا يمكنُ التنبؤُ بأحوالِها، وقد تسببت له شخصيًّا في العديدِ من المشاكلِ فيما يختصُّ بالمواعيد، لذلك لم ينفعل وفكَّر أنَّه ربَّما تكونُ هذه فرصةً له لينعمَ بثلاثين دقيقةً كاملةً من الهدوءِ من دون أن يشغلَ نفسَه بالعملِ أو بالتفكيرِ فيه.

قرَّر الاسترخاءَ قليلًا وطلب فنجانًا من قهوةِ (الاسبرسو)، ثم أخذ يفكِّر في حياتِه وكيف عاشها، فبدأت الأحداثُ الرئيسةُ في حياتِه تمرُّ أمامَ عينيه كومضاتٍ من الضوءِ القويّ بين غيرِها من الأحداثِ الفرعيةِ التي تشبهُ الضوءَ الخافت.

أخذ يسترجعُ ذكرياتِ سنواتِ عمرِه الأربعين بدءًا من سنواتِ مقتبلِ الشبابِ في الجامعةِ، ثمَّ عملِه -بعد تخرُّجِه- في أحدِ المصانعِ في الخليجِ لمدةِ خمسة عشر عامًا، ثمَّ عودتِه إلى مصر منذُ ثلاثِ سنواتٍ وتأسيسِه لمصنعِه الخاص.

بدت له حياتُه وكأنَّها كتابٌ به صفحةٌ واحدةٌ مكتوبةٌ والباقي صفحاتٌ بيضاء، فحياتُه ليس بها الكثيرُ من الأحداثِ التي يمكنُ أن تُمثِّلَ ذكرياتٍ أو علاماتٍ فارقة، فلم يكن هناك شيءٌ سوى العمل، حتى صداقاتُه ليست كثيرةً أو متشعبةً وهي تكادُ تكون

مقتصرةً على أصدقائِه منذُ أيامِ الجامعة، حتى عندما قرَّر أن يبحثَ عن شريكٍ له في مصنعِه اختار أحدَ أصدقائِه ممَّن كانوا في دفعتِه في كليةِ الهندسة، كما أنَّه غيرُ متزوجٍ حاليًا ولم يسبق له الزواج أو حتى الوقوع في الحب، وبعد دقائق معدودةٍ من التفكيرِ بدأت الومضاتُ تخفتُ في ذهنِه وتحولت ذكرياتُ عمرِه كلها إلى ضوءٍ خافتٍ كآخرِ شعاع للشمسِ قبل غروبِها ودخولِ ظلماتِ الليل.

وفجأة، وبينما هو يرتشفُ رشفةً من فنجانِ القهوة، لاحظت عيناه فتاةً تدخلُ من بوابةِ الفندقِ ممشوقةَ القوامِ، وشعرُها الأسودُ الطويلُ يتطايرُ في الهواءِ بفعلِ إحدى نسائمِ الربيع. وبعد عبورِها بوابةَ الأمنِ نزعت نظَّارتَها الشمسيةَ، فإذا بعينيها واسعتين ولهما لونٌ يماثِلُ لونَ شعرِها الذي انسدل على ظهرِها حتى غطى نصفَه.

اعتدل في جلستِه، فقد شدَّته الفتاةُ بجمالِها وأناقتِها، فأخذ ينظرُ إليها، فوجدها تعبرُ بهوَ الاستقبال ثمَّ تمشي في اتجاهِ القاعةِ التي يجلسُ فيها، كانت خطواتُها واثقةً فازدادت نظراتُه لها إعجابًا وتفحصًا! وكلَّما ازداد اقترابُها منه ازدادت ملامحُها وضوحًا

بالنسبةِ إليه فارتفع منسوبُ الإعجابِ بها عنده، وقفت عند مدخل القاعةِ وبحثت بعينيها عن طاولةٍ غيرِ مشغولةٍ تجلسُ عليها، فلم تجد إلَّا واحدةً فقط وكانت هي الطاولة التي بجانبِ "أحمد".

اتجهت بنفسِ خطواتِها الواثقةِ نحو الطاولةِ غير المشغولةِ وجلست عليها، في حين كان "أحمد" يتابعُها بنظراتِه ولم يحِد بنظرِه عنها منذُ لحظةِ دخولِها الفندق، وكلَّما خطت خطوةً باتجاهِه كانت حدقتا عينيه تزدادان اتساعًا من فرطِ انبهارِه بما كان يبدو له من جمالِها.

وفور جلوسِها على الطاولةِ المجاورةِ له تفحَّص ملامحَها بشيءٍ من الهدوءِ والتمهل، فلم يجد إلَّا ما يجعلُه يزدادُ إعجابًا بها، ثمَّ أخذ يمرُّ بعينيه سريعًا على جسدِها، فوجد كلَّ التفاصيلِ على أفضلِ ما يحبُّ ويتمنَّى ويحلم!

تحوَّل في ذهنِه شعاعُ الغروبِ الخافتُ إلى ما يشبهُ الومضةَ الصغيرة، فهو لا يتذكَّر أنَّه رأى امرأةً بهذا الجمالِ من قبل، كما أنَّه هو شخصيًّا لديه مواصفاتٌ ومقاييسٌ خاصةٌ في الجمالِ لم

تستوفِها امرأةٌ من قبل، والمفاجأةُ أنَّ هذه الفتاة التي تجلسُ على بعد مترٍ واحدٍ منه قد استوفتها بالكاملِ وجاوزتها أيضًا!

حـاول أن يسـتجمعَ ذاتَـه وأن يرتّـبَ أفكـارَه ويسـيطرَ على إعجابِه ويتحكَّمَ في مشاعرِه، فلم ينجح في الأخيرتين وإن كان قد نجح جزئيًّا في الأولتين، وبدأ يفكرُ وقال في نفسِـه أنَّه لا يعرفُ شيئًا عن هذه الفتاةِ فقد رآها منذُ دقيقةٍ واحدةٍ فقط، وكلُّ ما يعرفُه عنها هو أنَّها شديدةُ الجمالِ إلى درجةِ الإبهارِ، ولكنَّه لا يعرفُ اسمَها، لا يعرفُ عمرَها، لا يعرفُ شيئًا عن أهلِها، لا يعرفُ شيئًا عن عملِها، لا يعرفُ شيئًا عن أصدقائِها، لا يعرفُ شيئًا عن طبائعِها، لا يعرف أي شيءٍ عنها.

وبينما هو يفكرُ في ما لا يعرفُه عنها فوجئ برنينِ هاتفٍ محمولٍ يماثلُ رنينَ هاتفِه، فوضع يدَه في جيبِه كي يمسكَ بهاتفِه، ففوجئ بها تمسكُ هاتفَها لتردَ على المكالمة، فأدرك أنَّ الذي رنَّ هو هاتفُها لا هاتفه، وأنَّها تضعُ عليه نفسَ النغمةِ التي يضعُها هو على هاتفِه منذُ سنواتٍ عديدة، وهي أغنيةٌ رومانسيةٌ شهيرةٌ لمطربٍ عالميٍّ معروف.

قال لنفسِه: حسنًا، الآن هو يعرفُ عنها معلومةً جديدةً وهي أنَّها تضعُ نفسَ نغمةِ هاتفِه على هاتفِها المحمولِ! ففكر في ذلك للحظةٍ ثمَّ وجد نفسَه لا إراديًّا يسترقُ السمعَ وينصتُ بكلِّ جوارحِه إلى صوتِها وهي تتحدثُ في هاتفِها المحمول.

أعجبه صوتها فقد كان به ملائكيةٌ وصفاءٌ شديدين، وبه نعومةٌ افتقدتها كثيرٌ من النساءِ في هذه الأيامِ، وبه ثقةٌ واحترامٌ زاداه انشغالًا وتعلقًا بها ورغبةً في معرفةِ المزيدِ عنها.

لاحظ أنَّها كانت مكالمةً من صديقةٍ لها، وعرف من المكالمةِ أنَّها تعملُ مهندسةَ كمبيوتر في فرعٍ لإحدى الشركاتِ العالميةِ في مصر، وأنَّها تعملُ في قسمِ تطويرِ البرامجِ في تلك الشركة. أخذ يفكرُ فيما سمعه ويحلله، فهو يعرفُ أنَّ تلك الشركةَ العالميةَ والمشهورةَ تطبّقُ نظامًا صعبًا وصارمًا للغايةِ في اختيارِ العاملين لديها، حيثُ لا يختارون إلَّا شديدي التميزِ والتفوق، وكانت هذه إشارةً واضحةً على تميُّزِها المهنيّ وطموحِها الشخصي، ومثَّل له ذلك عاملَ إعجابٍ إضافيٍّ بها فهو طالما عشقَ الفتاةَ الطموحةَ التي تبني مستقبلًا مهنيًّا مستقلًا لها وتسعى للتفوق.

استغرقه التفكيرُ في هذه الفتاةِ التي ظهرت فجأة، وكلَّما اكتشف عنها شيئًا جديدًا جعله يزدادُ إعجابًا بها! قرَّر أن يهدأ قليلًا فربَّما تكون متزوجةً أو مرتبطةً أو شيئًا من هذا القبيل.

رنَّ هاتفُها المحمولُ مرةً أخرى، ومرةً أخرى بدأ يستمعُ لحوارِها مع من يكلِّمُها. كانت مكالمةً من صديقةٍ أخرى لها، وكلَّما تكلمت ازداد سعادةً فقد اكتشف أنَّها غيرُ متزوجةٍ وغيرُ مرتبطة، فقد كانت صديقتُها تدعوها إلى حفلةِ عُرسِها، وأدرك من طريقةِ الحوارِ وبما لا يدع مجالًا للشَّكِ أنَّها غيرُ مرتبطة، فقد قالت ذلك صراحةً لصديقتِها عندما تمنَّت لها عُرسًا سعيدًا قريبًا فأجابتها بأنَّ ذلك مرتبطٌ بأن تجدَ أولًا الرجلَ المناسب.

ازداد سعادةً، فالآن لا يوجدُ عائقٌ يمنعُه من التكلمِ معها، ولكنَّه تمهل وقال في نفسِه: أنَّه يحتاجُ أن يعرفَ عمرَها لكي يتخذَ بعد ذلك القرارَ المناسب.

بعد دقائق قليلةٍ اقتربت منها فتاةٌ أخرى وسلَّمت عليها وجلست معها، فقال في نفسِه يبدو أن هذه هي صديقتُها التي جاءت فتاتي لتقابلَها، وبدأتا في الحوار، وبدأ هو في الإنصات! استنبط من حوارِهما أنَّهما صديقتان منذُ الجامعة، وأنَّهما

خريجتا كليةِ الهندسة، ولكن من إحدى الجامعاتِ الخاصة الأجنبيةِ في مصر، ثمَّ استنتج سنةَ تخرجِهما عندما قالت إحداهما للأخرى - عرضيًّا أثناءَ الحوار - أنَّهما كانتا في أول دفعةٍ تتخرجُ من كليةِ الهندسةِ في هذه الجامعة، فهو يعرفُ هذه الجامعةَ جيّدًا لأنَّ إحدى قريباتِه تخرجت منها، فأرسل لقريبتِه رسالةً عبر المحمولِ يستفسرُ منها عن السنةِ التي تخرجت فيها أولُ دفعاتِ كليةِ الهندسة في جامعتِها، فلم تمر سوى دقيقتين حتى كان محمولُه يستقبلُ رسالةً من قريبتِه تحتوي - بالإضافةِ إلى بعضِ السخريةِ من سؤالِه - على العامِ الذي يسألُ عنه والذي جاء مطابقًا لتوقعِه.

أدرك الآن أنَّ عمرَها يبلغُ نحو الثلاثين عامًا، وكان هذا يمثلُ خبرًا سارًا جديدًا بالنسبةِ له ومن عدَّةِ أوجه، فأولًا: هي تبدو أصغرَ كثيرًا من عمرِها، وهذا يسعدُ أيَّ رجلٍ ويطمئنُه على مستقبلِه مع امرأتِه وعلى أنَّ جمالَها لن يخبو سريعًا، وثانيًا: هي أصغرُ منه بنحوِ عشرِ سنواتٍ كاملة، وهذا أيضًا خبرٌ يسرُّ كثيرًا من الرجالِ الذين يحبُّون أن يرتبطوا بفتياتٍ أصغر منهم، وثالثًا: يمثلُ عمرُ الثلاثين مرحلةً عُمريةً مثاليةً للفتياتِ في هذا العصرِ،

فهي ليست صغيرةَ السنِّ متقلبةَ المشاعرِ والأفكارِ - بشكلٍ سلبي - كأغلبِ فتياتِ مرحلةِ العشرينياتِ من العمرِ، وليست عمليةً ماديةً متوترةً وخائفةً - بشكلٍ زائد - من أن يفوتَها قطارُ الزواجِ كأغلبِ غيرِ المتزوجاتِ ممَّن هنَّ في مرحلةِ الثلاثيناتِ من العمر وما بعدها، فهي في مرحلةٍ مثاليةٍ من ناحيةِ نضوجِ المشاعرِ دون نضوبِها، ووضوحِ الأفكارِ واستقلاليتِها دون هرمِها وأنانيتِها.

تحول ما يشبهُ الومضةَ الصغيرةَ لديه إلى ومضةٍ كبيرةٍ كاملةٍ أشعت بداخلِه وأضاءت كلَّ جوانبِ روحِه، يبدو أنَّ القدرَ قرَّر أن يكون رحيمًا به، وقرَّر أن يضيفَ بعضَ الدفءِ إلى حياتِه وبعضَ الأملِ في مستقبلِه وبعضَ الحنانِ إلى مشاعرِه، التي كادت تنضبُ عينُها وكاد ينسى وجودها.

واصل الاستماعَ إلى حوارِها مع صديقتِها مرةً أخرى، كانتا تتحدثان عن حفلِ استقبالٍ ستحضرانه بعد نحوِ أسبوع، فإذا بها تقولُ لصديقتِها أنَّها لا تستطيعُ التأخُّرَ عن الساعةِ الحادية عشرة خارجَ المنزل، كما أنَّها لا تستطيعُ ارتداءَ فستانِ السهرةِ الذي اشترته عندما كانتا تتسوقان معًا لأنَّه مفتوحٌ بشكلٍ مبالغٍ

فيه، لذلك فقد أخذته إلى الخيَّاطةِ التي تتعاملُ معها لإجراءِ بعضِ التعديلات عليه.

تمهل لبرهةٍ ثمَّ رتَّب أفكارَه مرةً أخرى، إنَّها فتاةٌ ثلاثينية، شديدةُ الجمالِ، عذبةُ الصوتِ، غيرُ مرتبطة، مهندسةٌ ناجحةٌ وتعملُ في شركةٍ مرموقة، وفوق كلِّ ذلك واثقةٌ من نفسِها ومحافظةٌ ومحترمة، بل وأيضًا تضعُ على محمولِها نفسَ النغمةِ التي يضعُها هو على جهازِه! سأل نفسه: ماذا يريدُ أكثرَ من ذلك؟ ازداد اقتناعًا بها، حتى قبل أن يتكلمَ معها كلمةً واحدة، ولكنَّه كبح جِماحَ نفسِه وقرَّر أن يهدئَ من سرعةِ اندفاعِ مشاعرِه، ثمَّ سأل نفسَه: ماذا عن عائلتِها؟ إنَّه حتى الآن لا يعرفُ شيئًا عن عائلتِها.

لاحظ أنَّ صديقتَها تستأذنُ للانصراف، خاف أن تغادرَ معها، لكنَّه سمعها تقولُ لصديقتِها أنَّها ستنتظرُ في القاعةِ لأنَّ والدَها سيحضرُ مؤتمرًا هنا وهي ستحضرُ معه المؤتمرَ ثمَّ سيغادران معًا بعده. تساءل في نفسِه عن هذا المؤتمر، فتذكَّر أنَّه رأى إعلانًا صغيرًا أمام مدخلِ الفندقِ يشيرُ إلى أنَّ هناك مؤتمرًا طبيًّا سيعقدُ اليومَ في إحدى قاعاتِ الفندق، فاستنتج أنَّ والدَها يعملُ في المجالِ الطبي. ثمَّ رن محمولُها مرةً أخرى، وبدأت تتكلمُ

مع صديقةٍ أخرى لها، وبدا وكأنَّ صديقتَها تسألُها عن إمكانيَّةِ أن يخرجا معًا، فاعتذرت وقالت لها أنَّها ستحضرُ مؤتمرًا طبيًّا مع والدِها، ولا تستطيعُ الذهابَ معها لأنَّ والدَها سيقدمُ بحثًا مهمًا يعتبرُ - ومعه بحثان آخران في ذاتِ الموضوعِ - أساسَ نقاشاتِ المؤتمرِ وفعالياتِه في الأيام الثلاثة التي سيستغرقها المؤتمر.

عندها اقتنع "أحمد" أنَّه لا يستطيعُ أن يطالبَ الأقدارَ بأكثرِ من ذلك، فهذه الفتاةُ بها كلُّ المواصفاتِ التي ظل يحلمُ بها منذُ سنواتٍ طويلةٍ وكان يتمنَّاها منذُ أن بدأ التفكيرَ في النساء، فقد كان يبني على مدارِ السنين أهرامًا من المواصفاتِ والخصائصِ والمتطلباتِ في الفتاةِ التي يحلمُ بالارتباطِ بها ويضيفُ حجرًا جديدًا إلى تلك الأهرامِ يومًا بعد يومٍ، وموقفًا بعد موقفٍ، وحلمًا بعد حلمٍ، حتى اكتمل بناءُ تلك الأهرامات، وهذه الفتاةُ هي الوحيدةُ التي تطابقت مواصفاتُها شكلًا وموضوعًا مع هذا البناءِ الهرميّ المتماسكِ الهائل، لقد بدا وكأنَّ هذه الفتاة تمثِّلُ حلمه في الارتباطِ متجسِّدًا في هيئةٍ نصف بشريةٍ ونصف ملائكية.

ازداد وهجُ الوميضِ الذي بداخلِه حتى غطَّى كلَّ ما سبق من ومضاتٍ في ما مضى من عمرِه، أحس بالوهجِ يكادُ يضيئُ كلَّ

مستقبلِه، وتسارعت نبضاتُ قلبِه وتلاحقت أنفاسُه وتصاعد مؤشرُ التفاؤلِ في نفسِه، فقد اقتنع أخيرًا أنَّه قد وجد من يمكنُ أن تشاركَه حياتَه ويشاركَها حياتَها، وأنَّ سنواتِ الانتظارِ الطويلةَ قد شارفت على الانتهاء، وأخذ يسبحُ بعقلِه في بحورٍ من الأحلامِ والتمنيَّاتِ عن مستقبلِهما معًا.

قرر أن يكلِّمَها، فقد آن الأوانُ أن يتخذَ خطوةً تجاهها بعد كلِّ ما عرفه عنها. فكَّر قليلًا في كيفيةِ الحديثِ معها: ماذا سيقولُ؟ وكيف سيقولُه؟ وماذا ستكون ردَّةُ فعلِها؟ وكيف سيكون ردُّ فعلِه على ردَّةِ فعلِها؟ الكثيرُ والكثيرُ من الأسئلةِ التي دارت في ذهنِه وشغلت تفكيرَه. فقد لاحظ أنَّه تقريبًا لم يتكلم مع أيَّةِ فتاةٍ في حياتِه في موضوعٍ شخصي، فهو ليست لديه صديقاتٌ أو زميلاتٌ مقربات، وليست لديه أيَّةُ فكرةٍ عن كيفيةِ الحديثِ الوديِّ مع النساء!

تراجع ذهنُه خطوةً للخلف، أخذ رشفةً أخرى من فنجانِ القهوة، وأعاد التفكيرَ مرةً أخرى، واستمر يطرحُ الأسئلةَ على نفسِه: ماذا لو كان أهلُها بهم الكثيرُ من العيوب؟ ماذا لو كانت هي نفسها بها بعضُ العيوبِ في شخصيتِها؟ ماذا لو لم تتفهم طبيعةَ عملِه؟

مـاذا لـو...؟ طـرح على نفسِـه العديـدَ مـن الأسـئلةِ الافتراضـيةِ المتعلقةِ ببعضِ العيوبِ التي قد يكتشفها فيها أو في عائلتِها.

أخـذ رشـفةً أخـرى مـن فنجـانِ القهـوةِ ثـمَّ طـرح المزيـدَ مـن الأسئلةِ الافتراضية، لكن هذه المرة عن مستقبلِهما المفترضِ معًا. ماذا لو لم ينجبا أبناءً حسني المظهر؟! ماذا لو أنجبا أبناءً على درجـةٍ منخفضـةٍ مـن الـذكاء؟! مـاذا لـو كانـت شـجاراتُهما معًـا متكررة؟ ماذا لو كان لكلٍّ منهما وجهةُ نظرٍ مختلفة حيالَ تربيةِ الأبناء؟! ماذا لو أثر عملها على رعايتها لأسرتهما؟

أخذ شهيقًا عميقًا وأخرجه، ثمَّ ارتشف رشفةً أخرى من فنجانِ القهوة، واستمر في طرحِ الأسئلةِ الافتراضيةِ لكن هذه المرة عن نفسِـه، مـاذا لـو لـم تعجبـه حيـاةُ الـزواج؟ مـاذا لـو أنَّ طباعَـه لـم تعجبها؟مـاذا لـو نضـبت مشـاعرُه وتصـلَّبت أحساسيسُـه في المستقبل؟

ومع كلِّ سؤالٍ كان يسأله لنفسِه كان وهجُ الوميضِ بداخلِه يخبو تدريجيًّا، وكانت بحورُ الأحلامِ في ذهنِه تصغرُ رويدًا رويدًا. هدأت انفعالاتُه وخفَت إعجابُه وأوشكت مشاعرُه على التغير، وأدرك أنَّه لا يريدُ تغييرَ الوضعِ القائمِ في حياتِه، فهو قد جرَّبه لمدةِ أربعين عامًا وليس على استعدادٍ أن ينقلَ نفسَه لوضعٍ آخرٍ

لا يعرفُـه ولا يـدركُ أبعـادَه ولا يعـرفُ بعـد إن كـان سـيقدرُ على التكيُّفِ معه أم لا!

توقفت الكلماتُ عند طرفِ لسانِه، وخبا الوميضُ بداخلِه تمامًا، وجفَّت بحورُ الأحلامِ في ذهنِه.

قرر الانتقالَ لقاعةٍ أخرى ينتظرُ فيها شريكَه، وضع يدَه في جيبِه وأخرج بعضَ أوراقِ البنكنوتِ وتركها على الطاولةِ ثم مشى في اتجاهِ بابِ القاعة، وقبل عدَّةِ أمتارٍ من خروجِه وقف لبرهةٍ والتفت برأسِه إلى الخلفِ حيثُ تجلسُ الفتاة، نظر إليها للحظةٍ وهو يدركُ أنَّه ربَّما ينظرُ إليها لآخرِ مرةٍ، ثمَّ خرج من بابِ القاعةِ وترك الفتاةَ وراءَه، ترك حلمَه في الارتباطِ وراءَه، ترك حلمَه وراءه... لأنَّه خاف أن يعيشَه!

"مسافر في بحور النفس"

كالعادةِ وجد "راجي" نفسَه وحيدًا، ولكن هذه المرة في مدينةٍ جديدة، في مكانٍ ليس لديه فيه أصدقاءٌ أو معارف، ولكنَّه يعرفُ عنه الكثيرَ بحكمِ ما شاهده عنه من أعمالٍ فنيَّةٍ تليفزيونيةٍ وسينمائيةٍ وكذلك ما قرأه عنه، فهو وإن كان لم يسبق له الذهابُ إليه مطلقًا إلَّا أنَّ هذه المدينةَ بسحرِها الخاصِ وتنوعِها الثقافيِّ ومتاحفِها الضخمةِ وإنتاجِها الفنيِّ المتميزِ وأسواقِ مالها الهائلةِ وأعدادِ سيَّاحها الكبيرةِ وموانئِها البحريةِ والجويةِ والبريَّةِ الضخمة وناطحات سحابِها العالية، قد مثلت له دائمًا حلمًا خاصًا ورغبةً بعيدةَ المنال، فقد تمنى دائمًا الهجرةَ إلى "نيويورك" والانتقالَ للعيشِ فيها، وها قد حقَّق الزمانُ له أمنيته بعد طولِ انتظارٍ وبعد أن أصبح على مشارفِ الأربعين.

كان مشدودًا إلى التجربةِ والرحلةِ بشكلٍ كبير وذلك لأسبابٍ استطاع أن يُلمَّ ببعضِها واستمر يجهلُ البعضَ الآخر، كان قد سأل نفسَه كثيرًا وحاورها بخصوصِ هذه الرحلةِ وكانت المحصلةُ أنَّه قال لنفسِه وفي نفسِه: إنَّه الوقتُ المناسبُ للتجربةِ الجديدة، والتوقيتُ المثاليُّ للابتعادِ عن كلِّ ما هو قائمٌ من أشخاصٍ وأوضاعٍ أصبحت تمثلُ بالنسبةِ إليه روتينًا قاتلًا، وعاملَ ضغطٍ يكادُ يطيحُ بما بقي له من اتزانٍ ورجاحةِ عقل، وربَّما تكون هذه هي الفرصة الأخيرة له لتحقيقِ أحدِ أحلامِه القديمةِ وهو الهجرةُ والاستقرارُ في أرضِ الأحلام.

ومن أجلِ كلِّ ذلك كان شديدَ الحماسِ للرحلة، فضلًا عن أنَّه دائمًا ما عشق كلَّ جديد فما بالُك وهذا الجديد يمثلُ بلدًا وأناسًا ونمطَ حياةٍ غيرَ مألوفٍ له على الإطلاق؟!

وبمثلِ مقدارِ درجةِ عشقِه للجديدِ كانت رغبتُه في الهروبِ من حياتِه السابقةِ التي سئمها، فقد كان يعيشُ وسط أشخاصٍ لا يطيقُهم سواء كانوا من عائلتِه أو معارفِه أو زملائِه، كما كان غير راضٍ عن عملِه ووظيفتِه ومكانِ سكنِه، وأيضًا وسائل المواصلاتِ التي يستقلُّها والجهاتِ الحكوميةِ التي يتعاملُ معها، وكذلك

تعليمِه، وأيضًا زوجتِه السابقة، كان كأنَّما يريدُ أن يشطبَ حياتَه كلَّها ويمحوها ثمَّ يبدؤها من جديد، وها قد جاءته الفرصة.

وصل "راجي" إلى الفندق، ثمَّ بدأ يرتبُ أمورَ حياتِه الجديدة، وبعد عدَّةِ أسابيعٍ استلم عملَه ثمَّ بعدها بثلاثةِ أشهرٍ انتقل إلى شقتِه الجديدة.

لأول مرةٍ منذُ سنواتٍ أحس أنَّ الهدوءَ قد بدأ يتسللُ إلى نفسِه، وأنَّ القلقَ قد بدأ يخبو، وأنَّ الانفعالَ قد بدأ يقل، وأنَّ التوترَ قد بدأ في الابتعاد، وأن الرؤيةَ قد بدأت في الوضوحِ والأهدافَ بدأت في التحدد. شعر "راجي" بأنَّ جذوةً ما قد بدأت تشتعل وبأنَّ الأملَ بدأ يعود وبأنَّ الحياةَ على وشكِ الانطلاقِ من جديد.

كذلك وجد "راجي" أنَّ حياتَه قد بدأت تنتظم، وأنَّها بدأت تأخذُ شكلًا كثيرا ما تمناه، واستمتع برؤيةِ ما بدا له أنَّها روحُه تعودُ إليه بعد أن خُيِّلَ إليه أنَّه قد نسيَ مواصفاتِها وخصائصَها، وبعد أن كاد يتحولُ إلى شخصٍ يمثلُ نموذجًا لكلِّ ما عاش حياتَه كارهًا له وساخرًا منه بل ورافضًا حتى مجرد التفكيرِ فيه.

ومع مرورِ الأيامِ والأسابيعِ والشهورِ لاحظ "راجي" أنَّ حياتَه قد اختلفت في الشكلِ الظاهريِّ فقط ولكنَّه من الداخلِ لم يتغير، فهو يسكنُ حاليًا في مسكنٍ أفضل ويعملُ في وظيفةٍ أرقى ودخلُه الماديُّ أعلى وسيارتُه أفخم وانتقالاتُه أسهل وثيابُه أغلى، إلَّا أنَّ الجوهرَ كما هو، فهو لا زال كما كان في حياتِه السابقة: وحيدًا، عصبيًّا، حزينًا، مترددًا حينًا وانفعاليًّا حينًا في سلوكياتِه وقراراتِه ومشاعرِه، وغير قادرٍ على الإندماجِ مع محيطِ معارفِه سواء في العملِ أو خارجه.

حاول "راجي" مرارًا التخلصَ من هذه الأفكارِ وإهمالَها والاستمتاعَ بماديَّاتِ الحياةِ الجديدة، إلَّا أنَّه مع مرورِ الزمنِ بدأ منحنى حياتِه في النزولِ تدريجيًّا، فوحدتُه الدائمةُ أعادته إلى حالةِ الحزنِ والسكونِ التي ألِفها في حياةِ ما قبل الهجرة، كما أنَّ عدمَ قدرتِه على الاندماجِ مع معارفِه وزملائِه أدت لبقائِه وحيدًا شبه منبوذٍ في عملِه ممَّا أدى إلى إضعافِ مستقبلِه الوظيفيِّ بالتدريجِ وتجاوزِه في الترقياتِ وكذلك عدم حصولِه على حوافزٍ أو مكافات، وتردُّدُه الشديدُ أدَّى إلى استمرارِ ضياعِ الفرصِ منه كما أنَّ قراراتِه الانفعاليةَ تسببت في خسارته لأموالٍ كثيرةٍ في

استثماراتٍ غيرِ مدروسةٍ في البورصة، فضلًا عن خسارتِه للعديدِ من المعارفِ والزملاء.

بعد عامين بالضبطِ من وصولِه إلى "نيويورك" عادت حياتُه إلى الوضعِ الذي كانت عليه قبل سفرِه، بنفسِ محدوديتِها وعبوسِها ومساوئِها وظلامِها، وبدأ يجدُ أمامه كلَّ ما هرب منه حتى انتهى به الأمرُ حزينًا مكتئبًا وفاشلًا أيضًا.

بدأ يلملمُ ما تبقى له من ذاتِه، بدأ يفكرُ ويعيدُ التفكيرَ فيما حدث له في هذه المرحلةِ من عمرِه وهذه التجربةِ بكلِّ جوانبِها، أخذ يسألُ نفسَه: لماذا انتهى بي الأمرُ هكذا؟ لماذا انتهيتُ حيثُ بدأت؟

أخذ شهرًا أجازةً من عملِه ثمَّ عاد إلى بلدِه العربيِّ ليمضيَ فيه هذه العطلة، قرَّر أن يحاولَ العودةَ إلى البداية، إلى حيثُ بدأت المشكلاتُ وبدأت الإحباطاتُ وبدأت معها -ثم نمت- الرغبةُ في الابتعاد. أخذ يعيدُ دراسةَ كلِّ الأمورِ وقرر أن يحللَ كلَّ المواقف، بدأ يقابلُ نفسَ الأشخاصِ الذين طالما عاش معهم من أهلٍ وأقاربٍ وأصدقاءٍ بمن فيهم طليقته وزملاءه السابقين في العمل، زار نفسَ الأماكنِ وحاول اختبارَ نفسِ المواقفِ ولكنَّه فعل شيئًا واحدًا فقط بطريقةٍ مختلفةٍ وهو نظرتُه إلى الأمور، فقد

قرَّر النظرَ إلى كلِّ شيءٍ بعينٍ مختلفةٍ كما قرَّر التفكيرَ بطريقةٍ مغايرةٍ لما اعتاده.

بعد يومين من عودتِه إلى الوطن، ذهب "راجي" لزيارةِ أحدِ زملائِه السابقين في العمل، وبعد السلاماتِ والمجاملاتِ سأله "راجي" عن آخرِ أخباره، فأجابه زميلُه السابقُ بأنَّه تمكن من الحصولِ على ترقيةٍ استثنائيةٍ ثمَّ استطاع بعدها بشهورٍ الحصولَ على وظيفةٍ أخرى في شركةٍ متعددةِ الجنسياتِ وبمرتبٍ أعلى ومميزاتٍ أفضل من تلك التي كان يحصلُ عليها بعد الترقية في شركتِهما السابقةِ. اندهش "راجي" مما سمعه وأراد أن يسألَ زميلَه السابقَ عن كيفيَّةِ الحصولِ على هذه الترقيةِ ثمَّ كيفيةِ الالتحاقِ بالشركةِ متعدِّدةِ الجنسيات، إلَّا أنَّه شعر ببعضِ الإحراج، لاحظ زميلُه السابقُ ذلك الاندهاشَ ثمَّ هذا الإحراجَ وقرأ في عينيه الرغبةَ في السؤال، فبادره هو بالإجابةِ عن السؤالِ الذي لم يُسأل: لقد تمكنتُ من إتمامِ دورةٍ تدريبيةٍ مكثفةٍ لمدةِ ثلاثة أشهرٍ في إحدى الجامعاتِ الأجنبية ممَّا جعلني في وضعٍ أفضل من أقراني لذلك حصلتُ على الترقيةِ الاستثنائية، ثمَّ استطعتُ تطبيقَ ما تعلمته في هذه الدورةِ على الإدارةِ التي كُلفتُ

بقيادتِها وحققتُ نتائجًا إيجابيةً للغاية في فترةٍ ستة أشهرٍ فقط، لـذلك تمكنـتُ مـن الالتحـاق بالشـركةِ متعـددةِ الجنسـيات. هـل تذكرُ عندما تناقشنا في موضوعِ هذه الدورةِ التدريبيةِ منذُ ثلاث سنوات؟ ولكنَّك كنت مترددًا بشأنِها - كعادتِك دائمًا - يا "راجي"!

بعد نحو ساعةٍ استأذن "راجي" في الانصرافِ ثمَّ عاد إلى منزِله مشيًا، واستغل فترةَ التمشيةِ في التفكيرِ العميق في حوارِه مع زميلِه السابق وتحديدًا فيما قاله له بخصوصِ الدورةِ التدريبيةِ وتردُّدِ "راجي" في الالتحاقِ بها.

بعد مرورِ عدَّة أيامٍ اتفق "راجي" مع طليقتِه على أن يقابلَها في أحدِ المطاعمِ المشهورةِ لتناولِ الغداء سويًّا، وبالفعلِ التقيا في أحدِ المطاعمِ المطلَّة على حديقةٍ صغيرةٍ في وسطِ المدينة، ودار بينهما حوارٌ هادئٌ حول الحياةِ عمومًا وحول حياةِ كلٍّ منهما بعد الانفصالِ خصوصًا.

وفي أثناءِ حوارِهما سألته طليقتُه: لماذا أردت أن تقابلَني يا "راجي"؟

فأجابها "راجي" بأنَّه يريدُ الاطمئنانَ عليها ومعرفةَ آخرِ أخبارِها.

فقالت له: لدينا العديدُ من الأصدقاءِ المشتركين الذين يمكنُ أن تعرفَ أخباري وتطمئنَّ عليَّ عن طريقِهم، كما أنَّك كنت تستطيعُ أن تسألَني عن أخباري في أثناءِ نفسِ المكالمةِ التي أخبرتني فيها أنَّك تريدُ رؤيتي، لذلك سأسالك مرةً ثانية: لماذا أردت رؤيتي يا "راجي"؟

فوجئ "راجي" من دقةِ ووضوحِ سؤالِها، إلَّا أنَّه بعد تفكيرٍ قصيرٍ دام لثوان انتبه إلى حقيقةِ أنَّهما كانا متزوجين لفترةِ أربعة سنواتٍ كاملة وبالتأكيد فإنّ كلًا منهما اكتسب القدرةَ على فهمِ الآخر.

لذلك أجابها بوضوح: أريد أن أعرفَ وبعد مرورِ هذه الفترةِ على انفصالِنا، ما هو تقييمُك لتجربةِ زواجِنا؟ لماذا - من وجهةِ نظرك - لم تنجح التجربة؟

فتنهدت بعمقٍ ثمَّ قالت باقتضابٍ شديد: لقد كنت دائمًا حزينًا متشائمًا، دائمًا متقلبًا، أحيانًا كثيرة سلبيًّا، والأهمُّ أنَّك كنت لا تستمعُ إلَّا إلى صوتِك.

انهت جملَتها ثمَّ ساد بينهما صمتٌ لمدَّةِ دقيقتين استأذنت بعدهما في الانصرافِ ثمَّ غادرت المكانَ في هدوء، تركته ولكن لم تتركه كلماتُها، فقد كان دائمًا يعتقدُ أنَّه هو الطرفُ المظلومُ في

ذلك الزواج، وأنَّه الطرفُ الضحيةُ في ذلك الارتباط، ولم يستمع أبدًا لها أثناءَ الزواجِ أو بعد الانفصال.

كانت كلماتُها موجزةً ولكنَّها تعكسُ ألمًا كبيرًا ووجعًا شعر به في رجفةِ كلِّ حرفٍ نطقته وأحس به في نظراتِ الحزنِ التي بدت في عينيها. مثَّلت له هذه الجملةُ مع تلك النظراتِ ورجفاتِ الصوتِ ملخصًا كاملًا لحياتهما معا. بدا الأمرُ وكأنَّه يرى زواجهما من جديد وبعينٍ مختلفة، أدرك أنَّه كان دائمًا يرفضُ الرؤيةَ إلَّا لما يريدُه ويرفضُ الاستماعَ إلَّا لما يرغبُه.

بعد فترةٍ من مغادرتِها طلب الحسابَ ثمَّ انصرف من المطعم، وعاد إلى منزلِه مشيًا واستغل فترةَ التمشيةِ في التفكيرِ العميقِ في حوارِه مع طليقتِه عمومًا وتحديدًا في جملتِها الأخيرة.

بعد مرورِ خمسة عشر يومًا من رجوعِه إلى أرضِ الوطن، وبعد يومٍ مرهقٍ في إحدى الجهاتِ الحكوميةِ لإنهاءِ بعضِ الأوراقِ المتعلقةِ بعدادِ الكهرباءِ في شقتِه، عاد إلى منزلِه في حوالي الرابعة عصرًا، وبينما هو يفتحُ بابَ شقته فوجئ بأحدِ جيرانِه نازلًا على السلم، فألقى عليه السلامَ فرد جارُه السلامَ عليه وتوقف ثمَّ سأله: لماذا تتصببُ عرقًا يا "راجي"؟

فأجابه "راجي": لقد كنتُ في وزارةِ الكهرباءِ لإنهاءِ بعضِ المستنداتِ الخاصةِ بعدادِ الكهرباء الخاص بالشقة، هل تصدقُ أنَّ اليومَ هو خامسُ يومٍ أقضيه بالكاملِ عندهم ولم أتمكن بعد من استكمالِ كلِّ الإجراءاتِ اللازمة؟! إنَّ البطءَ والروتين في المصالحِ الحكوميةِ في هذا البلدِ لا يُحتملان!

فعلَّق جارُه قائلًا: نعم معك حق، لذلك قام جميعُ سكان العمارةِ -منذُ عامين تقريبًا وقبل سفرك - بعمل توكيلٍ لأحدِ المحامين المتخصصين في التعاملِ مع الجهاتِ الحكوميةِ لإنهاءِ هذا الأمر بسرعةٍ دون مشاكل، وبالفعلِ أنهاه في يومٍ واحد!

نزل عليه تعليقُ جارِه كالصاعقةِ فسأله "راجي" بمزيجٍ من الدهشةِ والاستنكار: لماذا لم يخبرني أحدٌ عن هذه التوكيلات؟

فأجابه الجارُ وهو يواصل تحرُّكَه لينزلَ درجتين على السلمِ بعد أن استشعر الحرج: لأنَّك لا تكلمُ أحدًا ولا تسألُ عن أحدٍ ولا تتشاركُ معنا في أيِّ شيء، فعندما تركتنا تركناك حتى لا نزعجك، ثمَّ سلَّم عليه وأسرع بالنزولِ على السلمِ والانصراف.

هنا فقط أدرك "راجي" أن المشكلةَ الأساسيةَ هي أنَّه أساء فهمَ الموقفِ كلّه، فقد هاجر إلى "نيويورك" منذُ عامين لأنَّه أراد

البحثَ عن حياةٍ أفضل والهربَ من واقعٍ سيء، إلَّا أنَّ الحقيقةَ المُرَّة هي أنَّ السببَ الوحيدَ لتلك الحياةِ السيئةِ الفاشلةِ التي كان يحياها هو "راجي" نفسه!

فالمشكلةُ كانت -ولا زالت- بداخلِه وكامنةً في أعماقِه، ملاصقةً له وملتحمةً به، ولا يمكنُ له أن يهربَ منها لأنَّه ببساطة لا يمكنُ للإنسانِ أن يهربَ من نفسِه. أدرك أنَّ رحلتَه الحقيقيةَ وسفرَه الحقيقيَّ لا يكونُ إلى خارجِ الوطنِ... ولكن إلى داخلِ النفس.

openkan.com

obeikan.com

"يومٌ من الماضي"

في يومٍ من أيامِ الربيعِ والشمسُ مشرقةٌ وشعاعُ نورِها الهادئ يفيضُ على الأرجاءِ ونسماتُ الهواءِ العليلِ تداعبُ الشجرَ والبشر، استيقظ "محب" في ميعادِ استيقاظِه اليومي وهو تمامُ الثامنةِ صباحًا، وقف خلفَ زجاجِ شباكِ غرفةِ نومِه التي تقعُ في الطابقِ العلويّ من منزله - المكونِ من طابقين - ومد بصرَه أمامَه ليشاهدَ انعكاسَ ضوءِ الشمسِ على المساحاتِ الخضراءِ المحيطةِ بمنزله، وكذلك شاهد اهتزازَ أغصانِ الأشجارِ والشجيراتِ نتيجةَ مداعبةِ نسماتِ الهواءِ لها.

شرد ذهنُه قليلًا في العمل، وكان "محب" من أمهرِ وأشهرِ أطباءِ وجراحي الأسنانِ في مدينتِه، أخذ يراجعُ - في ذهنِه - قائمةَ مهامِه لهذا اليوم فاكتشف أنَّه مشغولٌ من العاشرةِ صباحًا وحتى

الثامنةِ مساءً، ولديه عدَّةُ حالاتٍ هامةٍ وحرجةٍ تحتاجُ إلى أقصى درجاتِ التركيزِ وصفاءِ الذهن، ثمَّ شرد ذهنُه مرةً ثانية ولكن هذه المرة في الماضي البعيد، عاد بذهنِه إلى أيامِ الشبابِ الأولى، إلى سنواتِ الدراسةِ الجامعية، ذهب إلى حيثُ حماس الشبابِ وحيويتِه وآمالِه العريضةِ وطموحاتِه اللامحدودة، حين كان للأيامِ طعمٌ مختلفٌ ولتجاربِ الحياةِ نكهةٌ خاصة، ولكلِّ حدثٍ مهما كبر أو صغر وقعٌ على النفسِ والروحِ سواءٌ بالإيجابِ أو السلب، ولكنَّه في جميعِ الأحوالِ يؤكدُ لصاحبِه أنَّه مفعمٌ بالحيويةِ... والحياة!

أخذ "محب" يفكرُ ويسألُ نفسَه: لماذا لا يشعرُ بهذه الأحاسيسِ الآن؟ لماذا اختلف "طعمُ" الحياةِ؟ لقد اقترب من الخمسين، وتزوجَ زواجًا ناجحًا بجميعِ المقاييس، ولديه ثلاثةُ أبناءٍ كلٌّ منهم يُمثلُ نموذجًا يُحتذى في الأخلاقِ والالتزامِ والنجاح، وحقق نجاحًا كبيرًا في عملِه وأصبح طبيبَ أسنانٍ مرموقًا وعيادتُه دائمًا تعجُّ بالمرضى لدرجةِ أنَّ الحجزَ يكونُ عادةً قبلَ موعدِ الكشفِ بأسابيع، كما انعكس نجاحُه المهنيُّ على مستواه الماديّ وأصبح يعيشُ في مستوى مرتفع، ولديه (ڤيلا) في أحدِ

المجمَّعاتِ السكنيةِ الراقيةِ جدًا وعنده سيارتان من أفضلِ وأشهرِ الماركاتِ هذا بخلافِ سيارةِ زوجتِه وسياراتِ أولاده. ولكنَّه رغمَ كلِّ ذلك كان يشعرُ بأنَّه يفتقدُ شيئًا ما، لا يعرفُ بالضبطِ ماهيَّةَ هذا الشيءِ ولكنَّه يدركُ أنَّه يفتقدُ أحاسيسَ ومشاعرَ معينة تجاهَ النَّاسِ والأحداثِ والأماكنِ والعملِ وكلِّ الأشياء، مشاعر كان يحسها سابقًا وتلاشت تدريجيًّا مع مرورِ الأيامِ وتقدمِ العمر. كانت هذه الأسئلةُ تلحُّ عليه منذُ فترةٍ ولم يكن لديه إجابةٌ عليها.

أمسك بهاتفِه المحمولِ ثمَّ اتصل بسكرتيرةِ عيادتِه وأخبرها أنَّه لن يتمكنَ من الحضورِ للعيادةِ اليوم نتيجةَ ظروفٍ خاصة، وطلب منها الاعتذارَ للمرضى وإعادةَ ترتيبِ مواعيدِهم وترحيلها للأيامِ التالية، أمَّا الحالاتُ الحرجةُ فقد طلب منها أن تُرتبَ تحويلَها لأحدِ الزملاءِ في نفسِ اليوم.

لقد قرر "محب" أن يعيشَ يومًا من الماضي الذي يحبُّه ويحنُّ إليه، سيذهبُ إلى الجامعة، وسيحضرُ محاضرة، وسيذهبُ إلى أحدِ المقاهي الشهيرةِ بجانبِ كليتِه والتي كثيرًا ما اعتاد الجلوسَ عليها مع أصدقائِه طوالَ فترةِ دراستِه الجامعية، سيذهبُ مع

أحـدِ أصـدقائِه إلى السـينما ليشـاهدَ فيلمًـا جديـدًا، سـيلعبُ (بلياردو) مع أحدِ الأصدقاءِ كما اعتاد أن يفعلَ أيامَ شبابِه. لقد قرر أن يمارسَ أكبرَ عددٍ من الأنشطةِ التي اعتاد أن يمارسَها فترةَ الشبابِ التي يحنُّ إليها ومع نفسِ الأصدقاءِ الذين كان يمارسُ معهم هذه الأنشطةَ منذُ ما يقربُ من ثلاثين عامًا، سيحاولُ بكلِّ الطرقِ استعادةَ هذا الشعورِ الذي يفتقدُه ولا يعرفُ كيف يجدُه أو يصفُه بدقة، ولكنَّه شعورٌ كان يجعلُه مليئًا بالحيويةِ مفعمًا بالرغبةِ في التحدي مقبلًا على الحياة.

استعد "محب" لمغادرةِ منزله فارتدى ثيابَه ثمَّ ركب سيارتَه وانطلق إلى الكليةِ التي تخرج منها: كليةُ طبِّ الأسنان، وفي الطريقِ أجرى اتصالًا بصديقٍ له يعملُ حاليًا أستاذًا بالكليةِ وسأله ما إذا كان سيقومُ بتدريسِ أيَّة محاضراتٍ اليوم، فأجابه بالإيجابِ وبأنَّه سيلقي محاضرةً تبدأُ في تمامِ الساعةِ العاشرة، فطلب منه "محب" أن يحضرَ هذه المحاضرة، فتعجَّب صديقُه وسأله عن السبب، فأجابه "محب" بأنَّه يريدُ أن يجدِّدَ معلوماتِه، وعلى الرغم من أنَّ صديقَه لم يقتنع بالإجابةِ إلَّا أنَّه وافق على الطلبِ حيثُ لم يجد سببًا للرفض.

في تمامِ العاشرةِ كان "محب" يدخلُ قاعةَ المحاضراتِ لحضورِ المحاضرةِ حاملًا معه أجندةً صغيرةً مثلَ كلِّ الطُّلابِ الحاضرين، ومرتديًا ملابسًا غيرَ رسميةٍ جعلته قريبًا - في الشكلِ - من الطُّلابِ الذين يصغرونه بنحوِ ثلاثةِ عقود. كانت هذه أولَ مرةٍ يدخلُ "محب" فيها قاعةَ محاضراتٍ وسطَ طلبةٍ نظاميين يدرسون للحصولِ على شهادةٍ أكاديمية منذُ عشرين عامًا تقريبًا، أي منذُ أن أنهى دراستَه للحصولِ على الدكتوراه. كان الإحساسُ غريبًا بالنِّسبةِ له، إلَّا أنَّ وجودَ عشراتِ الطُّلابِ الشبابِ من حولِه أعطاه دفعةً وزاد من حماستِه ورغبتِه في خوضِ التجربةِ للنِّهاية.

وبالفعل اختار مقعدًا في منتصفِ القاعةِ بحيثُ يجلسُ مواجهًا للمحاضر. وبعد عدَّةِ دقائق دخل صديقُه ليلقي المحاضرة، وفي بدايةِ المحاضرةِ رحَّب به صديقُه قائلًا للطُّلاب: يحضرُ معنا اليوم الدكتور "محب ماضي" وهو كما تعرفون من أشهرِ أطباءِ الأسنانِ وأكثرِهم مهارةً وعلمًا، وبما أنَّكم في آخرِ عامٍ من دراستِكم الجامعيةِ فربَّما يكونُ من بينكم طالبٌ أو عدَّةُ طُلَّابٍ من المحظوظين الذين قد يقبلُهم الدكتور "محب" كمتدربين في

عيادتِه بعد بضعةِ أشهر، فشكره "محب" بإيماءةٍ من رأسِه وإشارةٍ من يدِه، ثمَّ بدأت المحاضرة.

كان كثيرٌ من الطُّلابِ الحاضرين يحدِّقون في "محب" ويلاحظون بدقَّةٍ كيف يكتبُ وكيف يتابعُ وكيف يناقشُ أيضًا وذلك عندما طلب منه المحاضرُ رأيَه في إحدى النقاط. وفور انتهاءِ المحاضرة، أحاط به عددٌ من الطُّلاب، البعضُ يسألونه عن سببِ الحضور، والبعضُ الآخرُ يطلبون رأيَه في اختيارِ مكانِ التدريب، ومجموعةٌ أخرى تسألُه عن أهميةِ وجدوى الدراساتِ العليا. أحس "محب" بعد انتهاءِ المحاضرةِ وبعد حواراتِه مع الطُّلابِ بشعورٍ غريبٍ لم يفهمه وقتها، إلَّا أنَّه أدرك بعد فترةٍ وجيزةٍ أنَّه شعورُ السعادةِ بالنجاح، فقد أحسَّ هنا وهو وسط كلِّ هؤلاءِ الطُّلابِ الشبابِ بمقدارِ النجاحِ الذي حققه في حياتِه عمومًا وفي مشوارِه المهنيّ خصوصًا، وهو ما جعله محطَّ أنظارِ واهتمامِ وإعجابِ الطُّلابِ الحاضرين.

بعد أن أنهى "محب" زيارتَه للكليةِ وبعد أن شكر صديقَه الذي ألقى المحاضرة، اتَّجه إلى سيارته سعيدًا منتشيًا، وفور أن دخل إلى السيارةِ أخذ شهيقًا عميقًا وأخرجه زفيرًا ببطء، وكرَّر ذلك

عدَّة مراتٍ ليهدئَ من تسارعِ نبضاتِ قلبِه نتيجةَ سعادتِه الغامرةِ ونشوتِه بهذه التجربة.

وبعد عدَّةِ دقائقٍ كان لا بُدَّ له أن يواجهَ نفسَه ويجيبَ عن السؤال: هل هذا هو نفسُ الشعورِ الذي كان يشعرُ به عندما كان يحضرُ محاضراتِه في نفسِ الكليَّةِ منذُ ثلاثين عامًا؟ وبعد تفكيرٍ عميقٍ كانت الإجابةُ: لا!

ففي ذلك الوقت كان يحبُّ محاضرةً ولا يحبُّ أخرى، كان يستوعبُ محاضرةً ويواجهُ صعوبةً في فهمِ أخرى، كان يحبُّ أستاذًا ولا يستسيغُ الآخر، كان طالبًا عاديًا مثلُه مثلَ غيرِه من الطُّلاب، أمَّا الآن فهو يحضرُ محاضرةً واحدةً يلقيها صديقٌ له وليس بها أيَّةُ معلومةٍ جديدةٍ بالنِّسبةِ له، كما أنَّه ليس شخصيةً عاديةً بين الطُّلابِ الحاضرين فهو شخصٌ مميزٌ ومشهورٌ وله سجِّلٌ حافلٌ بالنجاح. كما أنَّه في السابقِ كان يحضرُ المحاضراتِ بغرضِ التحصيلِ العلميّ الذي يعقبُه بناءُ مستقبلٍ وحياة، كان يحضرُ كلَّ محاضرةٍ وجزءٌ منه يفكِّرُ في مستقبلِه ويحلمُ بإنجازاته المرجوة، أمَّا الآن فهو يحضرُ محاضرةً على سبيلِ التجربةِ وهو قد حقَّق بالفعلِ النجاحاتِ التي كثيرًا ما سعى إليها وبنى حياةً

مستقرةً واستكمل هيكلَ المستقبلِ الذي كان يحلمُ به. وهنا أدرك "محب" أنَّه عاش تجربةً جيدةً أعطته إحساسًا صادقًا بالسعادةِ إلَّا أنَّها لم تُرجع إليه إحساسًا قديمًا عاشه وأحسَّ به منذُ ثلاثةِ عقودٍ أو يزيد.

بعد دقائق قليلة وبينما كان لا يزال جالسًا في سيارته، رنَّ هاتفُه المحمول وكان المتصلُ هو صديقَه الذي ألقى المحاضرة، وعرض عليه صديقُه أن يجلسا سويًّا على المقهى الشهيرِ المجاورِ للكليَّةِ مثل الأيامِ الخوالي. أعجب "محب" بالفكرةِ فهو لم يذهب إلى ذلك المقهى منذُ ربعِ قرنٍ تقريبًا ووجد أنَّها فرصةٌ جيدةٌ لاستكمالِ تجربتِه، فوافق "محب" واتفقا على أن يتقابلا هناك بعد ربعِ ساعة.

وبعد خمسةِ عشر دقيقةٍ كان "محب" يدخلُ إلى المقهى، كان الإطارُ العام للمكانِ -وهو الأرابيسك- كما هو وإن كانت الكراسي والطاولاتُ أحدثَ من تلك القديمة، كذلك كانت كلُّ وجوهِ العاملين في المكانِ غيرَ مألوفةٍ بالنِّسبةِ له إلَّا أنَّهم كانوا يرتدون زيًّا شبيهًا -إلى حدٍ كبير- بالزيِّ الموحدِ القديمِ والمألوفِ له. وفور دخولِه المكان جال ببصرِه سريعًا بين الجالسين فوجد صديقَه

جالسًا في مكانِهما المفضَّلِ الذي اعتادا أن يجلسا فيه مع أصدقائِهما منذُ زمنٍ بعيد، سلَّم على صديقِه وجلسا معًا. حرص "محب" على أن يطلبَ نفسَ الطلباتِ التي اعتاد أن يطلبَها عندما كان يأتي إلى هذا المكانِ منذُ ما يزيدُ عن ربعِ قرن، وأخذ يتحدَّثُ مع صديقِه في كلِّ أمورِ الحياةِ والعملِ وذكرياتِ الماضي وأخبارِ أصدقائِهما القدامى المشتركين. حاول "محب" أن يسترجعَ أحاسيسَ الماضي وذلك عن طريقِ الحديثِ عن الماضي مع شخصٍ ينتمي إلى الماضي وفي نفسِ المكانِ الذي اعتادا الجلوسَ فيه في الماضي، حيثُ استمرت جلستُهما معًا ما يقربُ من ساعةٍ كاملة، وبعدها استأذن صديقُه في الانصرافِ لارتباطِه بموعدٍ لمحاضرةٍ أخرى.

بعد انصرافِ صديقِه، أخذ "محب" يراقبُ أحاسيسَه ومشاعرَه فوجد أنَّه يحسُّ بسعادةٍ لرؤيةِ صديقٍ لم يره ولم يجلس معه منذُ سنوات، وكذلك يحسُّ بسعادةٍ لاستعادتِهما معًا لذكرياتِ الماضي، إلَّا أنَّه أدرك أيضًا أنَّ هذه المشاعرَ لا تماثلُ مشاعرَ الماضي، والفرقُ بينهما هو الفرقُ بين أن يعيشَ موقفًا وبين أن يتذكره، الفرقُ بين أن يكون جزءًا من حدثٍ بتفاعلاتِه

وأشخاصِه وانفعالاتِه وبين أن يتذكرَه ويمرَّ به على ذاكرته، فهو في الماضي كان جزءًا من أحداثٍ تمنحُه أحاسيسًا معينة، أمَّا الآن فهو يتذكرُ تلك الأحداثَ ويسترجعُها دون أن يكون جزءًا منها ودون أن يتفاعلَ معها، حيثُ أنَّه الآن جزءٌ من أحداثٍ أخرى وعنصرٌ في تفاعلاتِ مواقف مختلفة.

بعد عدَّةِ دقائقٍ طلب الحسابَ ثمَّ اتصل بأحدِ أصدقائِه وعرض عليه الذهابَ إلى السينما معًا، فوافق صديقُه على مضضٍ وبعد إلحاحٍ من "محب" حيثُ اضطر صديقُه إلى الاستئذانِ من عملِه مبكرًا ليذهبا معًا إلى السينما.

اختار "محب" إحدى السينماتِ التي كان يرتادها بشكلٍ دوري في فترةِ الشباب. وفور دخولِه منطقة الاستقبالِ لَفَتَ نظرَه الجودةُ العاليةُ لأفيشاتِ الأفلامِ المعروضةِ وذلك مقارنةً بما كان يتذكرُه عن أفيشاتِ الأفلامِ عندما كان من روادِ السينما منذُ سنواتٍ طويلة. وعند بدءِ عرضِ تنويهاتِ الأفلامِ القادمة - والتي تسبقُ عادةً عرضَ الفيلم - لاحظ وجودَ تغييراتٍ كبيرةٍ في قاعاتِ العرضِ، حيث أصبحت معدَّاتُها وتجهيزاتُها أكثرَ حداثةً وعصريةً ممَّا أدى إلى ارتفاعِ جودةِ الصوتِ والصورةِ مقارنةً بما اعتاده

سابقًا. وفور بدءِ عرضِ الفيلم حاول "محب" أن يندمجَ معه ويتوحَّدَ مع أبطالِه ويتفاعلَ بمشاعرِه مع أحداثِه كما اعتاد سابقًا، وبالفعلِ نجح في ذلك إلى حدٍ ما، وفي أثناءِ الاستراحةِ تجاذب مع صديقِه أطرافَ الحديثِ وتبادلا التعليقاتِ على الفيلم وأحداثِه وشخوصِه، ثمَّ استكملا مشاهدةَ الفيلم بعد ذلك. وفور نهايةِ الفيلم، اتَّجه "محب" مع صديقِه إلى إحدى الكافيهاتِ المجاورةِ للسينما وتجاذبا أطرافَ الحديثِ عن المعتادِ من المواضيعِ كالسياسةِ والرياضة. إلَّا أنَّه وسط حوارِه مع صديقِه كان يسرقُ لحظاتٍ من الزمنِ يبحثُ ويفكرُ فيها عن إجابةٍ لسؤالِه: هل تمكن من استرجاعِ أحاسيس ومشاعر الماضي لمجرد أنَّه كرر أفعالًا كان يفعلُها في الماضي؟ وكالعادة أومضت الإجابةُ في ذهنِه: لا!

فقد كان انفعالُه بالفيلمِ في الماضي مختلفًا، كان ما يمثلُه الفيلمُ بالنِّسبة له من مشاعرٍ مختلفًا عن الوضع الحالي، كان ما يحرِّكُه الفيلمُ من أحاسيسٍ مغايرًا عمَّا يحركُه الفيلم حاليًا، حيثُ أنَّه عندما كان شابًا كانت أحداثُ الفيلم بالنِّسبةِ إليه تمثلُ أحلامًا يتمنَّى أن يعيشَها، أمَّا الآن فأحداثُ الفيلمِ تمثلُ أحلامًا يتمنَّى لو كان قد عاشها.

بعد ذلك أجرى "محب" اتصالًا بصديقٍ آخرٍ له وعرض عليه الذهابَ للعبِ (البلياردو). استغرب صديقُه هذا الاتصالَ وهذا العرض، فهما لم يتحادثا هاتفيًّا منذُ شهورٍ كما أنَّهما لم يذهبا للعبِ (البلياردو) منذُ سنوات، إلَّا أنَّ صديقَه أعجب بالفكرةِ حيثُ أنَّها مثلت بالنِّسبةِ له تغييرًا لنمطِ حياتِه المتكررِ وكسرًا للملل. وبالفعلِ تقابلا بعد المكالمةِ الهاتفيةِ بساعتين في إحدى صالاتِ (البلياردو) في أحدِ الفنادقِ الفاخرة، وهما كانا قد اعتادا الذهابَ إلى هذه الصالةِ منذُ سنواتٍ مضت. وعند دخولِهما لاحظا أنَّ الطابعَ العام للصَّالةِ قد تغير كثيرًا وأنَّ هناك تجديداتٍ كثيرةً قد أجريت لإضفاءِ الطابعِ العصريِّ عليها. اتفقا على اللَّعبِ لمدةِ ساعةٍ واحدةٍ فقط، حيثُ كان كلاهما يريدُ الذهابَ لبيتِه مبكرًا لأنَّ كلًا منهما لديه عملٌ في صباحِ اليومِ التالي.

فوجئ "محب" من نفسِه عندما وافق هو صديقَه واتفق معه على مبدأ اللعبِ لمدةِ ساعةٍ واحدةٍ ولنفسِ المبرر وهو أهميةُ الذهابِ للعملِ مبكرًا في صباحِ اليومِ التالي. أدرك "محب" أنَّ رحلتَه الفكريةَ وتجربتَه على وشك الانتهاءِ وأنَّ عقلَه الباطنَ يشدُّه للعودةِ إلى الحاضر، ولابد أن يغتنمَ الفرصةَ ويحاولَ في

الساعةِ التاليةِ أن يستعيدَ أحاسيسَ ومشاعرَ الشبابِ ويسترجعَها من زمنٍ مضى وفات.

بدأ الصديقان اللعب، وحاول "محب" أن يستعيدَ الماضي وأن يندمجَ مع اللعبةِ بقدرِ المستطاعِ وأن يضع كلَّ تركيزَه على طاولةِ (البلياردو) مع صديقِه، ومع مرورِ الوقت بدأ "محب" يراقبُ مشاعرَه فوجد أنَّه يحسُّ بسعادةٍ كبيرةٍ حيثُ أنَّه لم يفكر في همومِ العملِ أو مشاغلِه خلال الوقتِ الذي أمضاه في لعبِ (البلياردو)، وأدَّى ذلك إلى أنَّه يحسُّ بارتياحٍ كما لو أنَّ كلَّ متاعب وهموم الحياةِ قد أزيحت من فوقِ كتفيه لمدةِ ساعةٍ كاملة، مما نتج عنه أنَّه جدد تفكيرَه ومشاعرَه وأحاسيسَه وأصبح أكثر استرخاءً وهدوءًا، وبالتأكيدِ سيصبح أكثر تركيزًا ونشاطًا في عملِه صبيحة اليومِ التالي، إلَّا أنَّه لم يسترجع نفسَ أحاسيس الماضي التي كان يشعرُ بها عند لعبِ (البلياردو). هناك شيءٌ ما مختلف. ففي أيامِ الشبابِ كان يمارسُ اللعبةَ بشكلٍ أكثر تنافسيةً كجزءٍ من صراعِه مع الحياة، أمَّا الآن فيبدو أنَّه يمارسُها ليرتاحَ من صراعِه مع الدنيا!

وبعد أن انتهى من اللعب، وبعد محادثةٍ سريعةٍ عابرة مع صديقِه استغرقت عشر دقائق، قام بوداعِ صديقِه، وأخذ يفكرُ في إجابةٍ لنفسِ السؤالِ الذي يظلُّ يلحُّ عليه ويسألُه لنفسِه مراتٍ عدَّة وبصيغٍ مختلفة: أين ذهبت مشاعرُ وأحاسيسُ الشباب؟ ولماذا اختلف طعمُ الدنيا مع مرورِ الزمن؟ ولماذا لا يستطيعُ استرجاعَ نفس شغف واندفاع ورغبة الشباب؟

وبينما هو يقود سيَّارتَه عائدًا إلى منزله أخذ يراجعُ يومَه دقيقةً بدقيقة وحدثًا بحدث، ويراجعُ مشاعرَه وأحاسيسَه وتغيرَها وتفاعلَها مع أحداثِ اليوم منذُ بدايته، وأدرك أنَّ الحاضرَ لا يمكنُ أن تعيشَه بمشاعرِ وأحاسيسِ الماضي، فأنت الآن غير ما كنت سابقًا، وأهدافُك الآن ليست كأهدافِك فيما مضى، وأحلامُك اختلفت بل واحباطاتُك اختلفت أيضًا، وبالتالي فحتى وإن عشت نفسَ الأحداثِ في نفسِ الأماكنِ مع نفسِ الأشخاص فأنت وهم بالتأكيد مختلفون الآن عمَّا كنتم سابقًا وبالتالي ستختلفُ مشاعرُكم الآن عمَّا كانت سابقًا.

وعندما وصل إلى منزلِه، صعد إلى غرفتِه، ثمَّ وقف خلف زجاجِ شباكِ غرفةِ نومِه وأخذ ينظرُ إلى انعكاسِ أضواءِ مصابيحِ الإنارةِ

على المساحاتِ الخضراءِ التي تتخللُ المنازلَ في المُجمَّعِ السكني، أخذ شهيقًا عميقًا ثم أخرجه ببطءٍ شديد، استرجع تجربته بكلِّ حذافيرِها وتفاصيلِها كشريطٍ سينمائيٍّ متكاملٍ يمرُّ أمام عينيه ثمَّ وصل إلى إجابةٍ لسؤالِه.

أخيرًا، أدرك "محب" أنَّ عليه أن يتوقفَ عن محاولاتِه أن يعيشَ الماضي وأن يسترجعَ أحاسيسَه من جديد كما حاول أن يفعلَ طيلة اليوم، وأدرك أن الماضي بمشاعرِه وأحاسيسِه وطعمِ أيامِه يجبُ أن يكون بالنِّسبةِ إليه فقط عبارة عن ذكرياتٍ وتجاربٍ مضت وانتهت بكلِّ نجاحاتِها وإخفاقاتِها، وهي ذكرياتٌ جميلةٌ أو دروسٌ صعبةٌ تمرُّ على أذهانِنا دون أن نحاولَ أن نحياها من جديد، وأدرك أنَّ عليه بدلًا من ذلك أن يحاولَ أن يعيشَ الحاضرَ ويستمتعَ به. فالماضي قد انتهى ولا يمكنُ أن نستعيدَه أو نحياه مرةً أخرى، حيث أن الماضي بالنسبةِ له هو الشبابُ بكلِّ أحلامه وطموحاته، ونكهةُ أيَّامِ الشباب يستحيلُ استعادتُها لأنَّ هناك فارقًا كبيرًا بين أن يكون حلمُك أمامَك... وبين أن يكون وراءَك!

obeikan.com

"حب في المنطقة الرمادية"

داخل مكتبِه الفخمِ ذي الطرازِ التقليديّ القديم -وهو نفسُ طرازِ الديكورِ والأثاثِ الذي اختاره لشركتِه كلِّها عند تأسيسِها وتأثيثِ مقرِّها- جلس "كمال" يجري بعضَ المكالماتِ الهاتفية، بعضُها خاصٌ بشحنةٍ من المعلَّباتِ الغذائيةِ يقومُ بتصديرِها، وبعضُها الآخر خاصٌ بأعمالِ الصيانةِ لحمَّامِ السباحةِ في (فيلتِه) الفخمةِ في أحدِ المجمَّعاتِ السكنيةِ الراقيةِ على أطرافِ "القاهرة"، ثمَّ بعضُ المكالماتِ الخاصةِ بحفلِ الاستقبالِ الذي سوف يقيمُه بعد يومين في إحدى أفخمِ قاعاتِ أحدِ فنادقِ الخمسة نجوم المطلَّةِ على النيل، وهو حفلُ استقبالٍ يقيمُه بمناسبةِ افتتاحِ ثالثِ مصنعٍ داخل مجمَّعِ الصناعاتِ الغذائيةِ الذي قام بتأسيسِه منذُ اثني عشر عامًا.

سارت أمورُ حياتِه من جيدٍ إلى أفضل خلال السنواتِ الأخيرة، فقد انتهى من تأسيسِ مجمَّعٍ متكاملٍ للصناعاتِ الغذائية، واستطاع توقيعَ عدَّة عقود تصديرٍ وفتحَ أسواقٍ لمنتجاتِه خارج البلاد، وأيضًا قام بشراء وتأثيث (ڤيلا) فخمة بداخل أحدِ أكبر وأرقى المجمَّعاتِ السكنية، كما انتهى من دراسةِ الماچيستير في إدارةِ الأعمالِ حيثُ كان يحتاجُ لزيادةِ وصقلِ معارفِه في مجالاتِ الإدارةِ ليضيفَ إلى خلفيتِه العلميةِ الهندسية المهارات اللازمة للنموّ بشركتِه.

إلَّا أنَّ انغماسَه الشديدَ في عملِه ودراساتِه أبعده تمامًا عن أصدقائِه ومعارفِه ولم تعد له حياةٌ اجتماعيةٌ بالمعنى المفهوم، فأغلبُ معارفِه وصداقاتِه حاليًا هي معارفُ وصداقاتُ عملٍ وعلاقاتٌ مبنيةٌ على المصالحِ باستثناءاتٍ قليلةٍ للغاية، كما أنَّ انهماكَه الشديدَ في العملِ أدى إلى فشلِ تجربتِه في الزواج، حيثُ انفصل عن زوجِه السابقةِ بعد أقل من عامٍ على زواجِهما.

كانت آخرُ مكالمةٍ أجراها في هذا اليومِ هي لأحدِ أصدقائِه المقربين للغاية، فقد نَمَت صداقتُهما منذُ كانا يدرسان معًا في المرحلةِ الثانويةِ، وهي علاقةٌ لم تتلوث بالأحقادِ أو الضغائنِ ولم تؤثر عليها مصالحٌ أو تجارة.

اتصل بصديقِه ليؤكدَ عليه حضورَه حفلَ الاستقبال، فطمأنه صديقُه إلى أنَّه سيحضرُ ومعه زوجته في تمامِ الثامنةِ مساءَ بعدِ غد، فشكره "كمال" كثيرًا، وكان شكرُه ينبعُ من حقيقةِ أنَّ هذا الإنسانَ سيكون الصديقَ الحقيقيَّ الوحيدَ له في وسطِ العشراتِ من المعارفِ السطحيين والأشخاصِ الآخرين الذي يُمثلون علاقاتِ مصالحٍ فقط لا غير ولا محلَّ لها من أيِّ إعرابٍ آخر.

وفي موعدِ حفلِ الاستقبال، وقف "كمال" قريبًا من بابِ القاعةِ ليرحِّب بضيوفِه فور وصولِهم ودخولِهم القاعة، حضر كلُّ من وصلتهم الدعوةُ ولم يتخلَّف أحدٌ إلَّا صديقَه. وعندما اقتربت الساعةُ من التاسعةِ مساءً شعر "كمال" بالقلقِ على صديقِه فاتصل به دون أن يجدَ ردًّا، عاود الاتصالَ به مرةً ثانيةً بعد عشرِ دقائق وأيضًا لم يجد ردًّا. وبعد عدَّةِ دقائق فوجئ "كمال" بزوجةِ صديقِه تدخلُ من بابِ القاعةِ وحدها، فاتجه إليها مسرعًا وعلى وجهِه ابتسامةٌ فرحًا بوصولِها وداخل نفسِه الكثيرُ من القلقِ والتساؤلاتِ عن أسبابِ عدمِ وجودِ صديقه معها.

فرحَّب بها محاولًا إخفاءَ قلقه ثمَّ سألها: كيف حالُك يا "أمنية"؟ لقد قلتُ في نفسي أنَّكما لن تأتيا الليلة. قالها وافترض في نفسِه أنَّ صديقَه سيأتي لاحقًا.

فأجابت "أمنية": لقد أصيب صديقُك بارتفاعٍ شديدٍ في درجةِ حرارته ومغصٍ حادٍ ولن يتمكنَ من القدوم، لذلك طلب منّي أن أحضرَ نيابةً عن كلينا لتهنئتِك، إلّا أنَّني لن أتمكنَ من البقاءِ أكثرَ من نصفِ ساعة.

فقال لها "كمال": أتمنَّى له الشفاءَ العاجل، لهذا لم يجب على اتصالاتي.

فعلَّقت "أمنية": إنَّه نائمٌ منذُ الأمس، لا يستيقظُ إلّا لفتراتٍ قصيرةٍ ليأكلَ أو يأخذَ دواءَه.

فقال "كمال": سآتي غدًا لزيارته، وشكرًا جزيلًا على قدومِك. ثمَّ أشار لها بيدِه للدخولِ قائلًا: تفضَّلي.

فشكرته "أمنية" وتحرَّكت أمامه تخطو إلى داخل القاعة، بدت وهي في فستانِها الأبيضِ الطويلِ الذي رآه انعكاسَ مرآةٍ لصفاءِ روحِها، والمزيَّنِ ببعضِ الخرزِ اللامعِ، كأنَّها فراشةٌ تتلألأُ وسط القاعة،كما بدت وهي بحذائِها الأبيضِ ذي الكعبِ العالي - الذي زاد جسدَها أنوثةً وجمالًا - كأنَّها تُحلِّق فوق الحاضرين جميعًا، وأضفى ماكياجُها الخفيفُ المزيدَ من الأنوثةِ الهادئةِ

عليها، في النهايةِ بدت في عينيه وكأنَّها كائنٌ ملائكيٌّ أرقى من البشرِ جميعًا وأعلى مكانةً من بني الإنسان.

لم تكن "أمنية" تعرفُ أحدًا من الحاضرين إلَّا "كمال"، وانتبه "كمال" لذلك سريعًا عندما وجدها تقفُ وحيدةً في أحدِ أركانِ القاعةِ تطالعُ أحدَ الكتيّباتِ التعريفيةِ عن شركتِه ومصانعِها وأنشطتِها.

ذهب إليها بعد أن استأذن من معارفِه الذين كان يقفُ معهم، ثمَّ سألها: أرى أنَّك قد قرأت الكتيبَ كاملًا، فما رأيك في الشركة؟

فأجابت مبتسمةً: أنا لا أعرفُ أحدًا هنا، لذلك لم يكن أمامي سوى قراءة الكتيّبِ كاملًا، وعمومًا شركتُك رائعة، وأتمنَّى لك التوفيق.

فقال لها: هل تعلمين أنَّ زوجَك كان من الممكنِ أن يكون شريكًا لي الآن؟ إلَّا أنَّه فضَّل البقاءَ في الوظيفةِ وآثر الاستقرارَ على المغامرةِ.

فأجابته: نعم، لقد حكى لي القصةَ في بدايةِ زواجِنا منذُ سبعةِ أعوامٍ، وقد أيَّدته في قرارِه الذي كان قد اتخذه منذُ خمس

سنواتٍ سابقةٍ على زواجِنا، فأنا كنت من أنصارِ الوظيفةِ المستقرة، لكن من الواضحِ أنَّنا كنَّا مُخطِئَين!

فعلَّق "كمال": الحياةُ اختياراتٌ ومن المستحيلِ أن يربحَ الإنسانُ كلَّ شيء، فقد ربحتُ شركةً كبيرةً وعشراتِ الملايين من الجنيهاتِ ولكنَّني خسرتُ زواجي، حيثُ لم تتحمل زوجتي السابقةُ عمليَ المتواصلَ لمدةِ ستة عشرة ساعةً يوميًّا دون إجازاتٍ أو راحة، وكذلك خسرتُ حياتي الاجتماعية.

فقالت "أمنية": ولكنَّك ربحتَ شيئًا في مقابلِ شيءٍ خسرتَه، أمَّا صديقُك فقد خسر فرصةَ الشراكةِ معك ولم يربح أمامها شيئًا.

فقال "كمال" معترضًا: لقد ربح استقرارَه الوظيفيَّ وراحةَ بالِه، وربح زواجًا ناجحًا مستقرًا.

فعلَّقت "أمنية": لا أعتقد، فقد ربح جمودًا وظيفيًّا وكسلًا ذهنيًّا وزواجًا تقليديًّا وحياةً روتينية، فهل تُطْلقُ على هذا ربحًا؟!

فقال لها متسائلًا بعد فترةِ صمتٍ قصيرة أخذ خلالها نفسًا عميقًا وأخرجه ببطء: هناك كلامٌ كثيرٌ وراء ما قلتيه للتو... ماذا تقصدين يا زوجةَ صديقي؟

فأجابت: وهل يرضيك أنت ما وصل إليه صديقُك القديمُ وزميلُ دراستِك؟ إنَّه مثلُك على مشارفِ الخامسة والأربعين، ولم يحقق شيئًا في حياتِه.

فقال "كمال" بنبرةٍ حادة: أنا أولُ مرةٍ أسمعُ منكِ هذا الكلام! بل حقق، فهو متزوجٌ زواجًا ناجحًا ولديه ولدان ووظيفةٌ جيدة، لماذا تقولين هذا؟!

فقالت له "أمنية" بنبرةٍ حزينةٍ وهادئةٍ تمامًا لتمتصَ انفعالَه: أنت فعلًا لم تسمع منِّي هذا الكلامَ من قبل، ذلك لأنَّك لم تتحدث معي إطلاقًا قبل الآن، باستثناءِ كلام المجاملاتِ عندما كنتَ تأتي لزيارتنا، أمَّا زواجي بصديقِك فزواجٌ تقليديٌّ روتيني وليس به معنى لأيِّ نجاحٍ يُذكر، أمَّا الأولاد فليس باستطاعتنا حتى أن نُدخلَهم مدرسةً جيدةً ليحظَوا بفرصِ حياةٍ أفضلَ من تلك التي حظينا بها، أمَّا وظيفتُه فأنت تعلم تمامًا أنَّها تحوَّلت بالنسبةِ له إلى عملٍ روتيني بلا مستقبلٍ واضحٍ أو فرصِ نموٍ أو ترقي، بعد أن توقَّف صديقُك تمامًا عن تطويرِ نفسِه منذُ زمن. ثمَّ أضافت بعد أن نظرت إليه بحسرة: يا ليته كان مثلك!! يا ليته كان في نجاحِك أو يمتلك حتى بعضًا من شخصيتِك!!

كانت نبرةُ الحزنِ في صوتِها تؤيدُ كلَّ كلمةٍ تنطقُ بها، وكانت نظرةُ الحزنِ في عينيها تزدادُ وضوحًا مع اتساعِ فتحةِ قلبِها لـ"كمال" لتشكو له ظروفَ حياتِها. ومع نهايةِ آخرِ جملةٍ قالتها

أحست بصدمةٍ كبيرة، فقد فوجئت من نفسِها وبدا عليها كما لو أنَّ شيئًا ما أخفته سنين طويلة قد ظهر أخيرًا... وما كان ينبغي له أن يظهر!!

ساد بينهما صمتٌ استمر ما يقربُ من دقيقة. ثمَّ استأذنت في الانصرافِ بحجَّةِ ظروفِ مرضِ زوجِها، فمشى معها "كمال" مرتبكًا حتى بابِ القاعةِ ثمَّ قام بوداعِها، وأكَّد عليها أنَّه سيأتي ليزورَهم غدًا للاطمئنان على صديقِه.

فوجئ "كمال" بما قالته له "أمنية"، ووقعت عليه جملتُها الأخيرةُ كالصاعقة، ولكنَّه حاول إخفاءَ ما بدا على وجهِه من علاماتِ المفاجأةِ لكي لا يلاحظ أحدٌ من روَّادِ الحفلةِ أنَّ هناك خطبٌ ما.

وبعد انصرافِ الحضور أخذ "كمال" يفكِّرُ في كلِّ ما قيل في حوارِه مع "أمنية"، ثمَّ بعد ذلك عاد بالزمنِ سبعَ سنواتٍ إلى الوراء عند بدايةِ زواجِ صديقِه بـ"أمنية"، لاحظ أنَّه كان دائمًا يتجنَّبُ الكلامَ معها ويحاولُ أن يتفادى أيَّ حوارٍ بينهما، كما كان دائمًا يُرتِّب لقاءاتِه مع صديقِه بحيثُ لا تكونُ حاضرةً معهما، كان يفعلُ ذلك دائمًا إلَّا أنَّه لم يفكِّر في سببٍ لِمَا كان يفعلُه!

لم تتجاوز لقاءاتُهما وحواراتُهما معًا -طيلةَ هذه السنواتِ السبع- حدودًا سطحيةً معينة حرص هو على أن يرسُمَها بدقةٍ وحذر، دون أيضًا أن يفهمَ سببًا لذلك. وإذا أضفنا هذا الحرصَ إلى تلك الحدود إلى ذلك الاجتنابِ المتعمَّد، ثمَّ وُضِع مجموعُ ذلك كله في جانبٍ ووُضِع موقفُ اليومِ في جانبٍ آخر، فإنَّ المقارنةَ بينهما تصيبُه بحالةٍ من الجنونِ والحيرةِ الشديدن. فلا معنى أن تفتحَ له "أمنية" قلبَها بعد كلِّ تلك الحواجزِ التي وضعها في علاقتِهما وحرص على ألَّا يتجاوزها أيُّهما. ثمَّ عاد وسأل نفسَه السؤالَ الذي ظلَّ يهربُ منه منذُ سبعِ سنواتٍ كاملة: لماذا كان يتجنَّبُها؟! لماذا كان يصرُّ على الابتعادِ عنها؟! لماذا كان يعملُ على زيادةِ المسافةِ بينهما دائمًا؟! وما سرُّ ذلك البرودِ الذي كان يعاملُها به؟!

حاول "كمال" أن يستخدمَ كلَّ خبراتِه في الحياةِ وكلَّ ما تعلمه في كلِّ موقفٍ مرَّ به لكي يفهمَ نفسَه، أدرك أنَّه لابد له من البحثِ عميقًا داخل ذاتِه، هناك في الأعماق، في أعماقِ مشاعرِه وأحاسيسِه، وعميقًا في أغوارِ نفسِه وداخل أدق ثنايا تفكيرِه. لقد اكتشف أنَّ "أمنية" مثَّلت له دائمًا - داخل حدودِ عقلِه الباطن -

صورةً للمرأةِ المثاليةِ المثقفةِ، وللسيدةِ المتكاملة عملًا وربةَ منزل، وكذلك للمرأةِ ذات الأنوثةِ الهادئةِ والهادرةِ في آنٍ واحد. كان هذا رأيُه فيها منذُ وقعت عيناه عليها عندما ذهب ليباركَ لصديقِه على الزواجِ في منزلِه، فقد تعرَّف صديقُه عليها وتزوجها خلال العامِ الذي قضاه صديقُه في العملِ في إحدى الدولِ الخليجيةِ وبالتالي لم يتسنَّى لـ"كمال" معرفتَها أو رؤيتَها قبل ذلك.

وبدأ "كمال" يسألُ نفسَه: هل كان جفاؤُه المُتعمَّدُ لها ردَّ فعلٍ على إحساسِه ببعضِ الانجذابِ نحوها؟ هل كان ابتعادُه المبالغُ فيه عنها سببه محاولة كبتِ رغبتِه الدفينةِ في الاقترابِ منها؟ هل كان برودُ تعاملاتِه معها سببه رغبته في السيطرةِ على سخونةِ انبهارِه بها؟ هل كان ذلك محاولةً منه ألَّا ينجرفَ إلى المحظورِ ويخسرَ صديقَه وقبل ذلك وبعده يخسرُ نفسَه؟

استمر "كمال" لعدَّةِ ساعاتٍ يسألُ نفسَه ويحاولُ تارةً الإجابةَ وتارةً أخرى يحاولُ الهروبَ من الأسئلةِ والإجابةِ معًا حتى أتى عليه الصباحُ دون أن يتسرَّبَ النومُ إلى جفونِه.

عند الساعةِ السابعةِ صباحًا تقريبًا، دخل إلى مطبخِه ليحضر لنفسِه فنجانًا من قهوةِ النسكافيه، أخذ يشربُ

النسكافيه بهدوءٍ محاولًا التوقفَ عن التفكيرِ ولو لعدَّةِ دقائق ليتمالكَ فيها السيطرةَ على أعصابِه وعقلِه ومشاعرِه، وأثناء تجواله بفنجانِ النسكافيه في غرفتِه توقف فجأةً عند إحدى المرايات الكبيرةِ المعلَّقةِ على أحدِ الحوائط، ثمَّ نظر إليها أي نظر إلى نفسِه، ولفتت هذه النظرةُ انتباهَه إلى أن الحبَّ مرآةٌ نرى عن طريقِها ومن خلالِها انعكاسًا لحقيقةِ أنفسِنا ومشاعرِنا تجاه الشخصِ الذي نحبُّه، وأيضًا نرى انعكاسًا لحقيقةِ من نحبُّهم ومشاعرهم تجاهنا.

فقال لنفسه: إذا افترضنا جدلًا أن ما بداخلي من أحاسيس هي عبارة عن مشاعرِ حبٍّ تجاه "أمنية"، فما هي حقيقةُ مشاعرِها تجاهي؟

أصابه السؤالُ بالصدمة، فهذه أولُ مرةٍ يعترفُ لنفسِه بأنَّه يكنُّ مشاعرَ حبٍّ تجاه "أمنية"، لقد أخذ يحاربُ نفسَه ويتجاهلُ صراخَ مشاعرِه داخل جدرانِ قلبِه لسبعِ سنواتٍ كاملةٍ لكي لا يتجرأَ أو يسألَ نفسَه هذا السؤال أو تواتيه الجرأةُ وينطقُ هذه الجملةَ ولو على سبيلِ الافتراضِ الجدلي. استغرق الأمرُ فترةً حتى تجاوز صدمةَ السؤالِ والجملةِ وجاءت لحظةُ الحقيقةِ والإجابة،

أخذ يسترجعُ كلَّ ما له علاقةٌ بـ"أمنية" منذُ رآها حتى اليوم، لقد أدرك أنَّ كلَّ كلمةٍ كانت تنطقُها وكلَّ حركةٍ تأتي بها وكلَّ إيماءةٍ تقومُ بها كانت إمَّا تعبيرًا عن حبٍّ مكتومٍ تجاهه بداخلِها أو تعبيرًا عن غضبٍ منه لاعتقادها أنَّه لا يفهمُ ولا يدرك مشاعرَها تجاهه.

مجاملاتُها له لم تكن عاديةً ولا مدحُها له تقليديًّا ولا إعجابُها به وبما يقومُ به إعجابًا سطحيًّا، بل كان كل ذلك مليئًا بفيضٍ من مشاعرٍ تحاولُ جاهدةً ألَّا تخرجها إلى النورِ، وأن تظلَّ دائمًا غاطسةً تحت سفينةِ الحياة ومغلفةً في إطارِ المعاملاتِ والمجاملاتِ البروتوكولية. ولكنَّ الحبَّ لا يمكنُ إخفاؤه إلى الأبد، والمشاعر لا يمكنُ قتلُها أو التخلُّص منها، ومن تحبُّه سيحسُّ بذلك مهما حاولت إخفاءَ المشاعر أو تمثيلَ عكسها أو ادِّعاءَ عدم وجودِها. وقد أدرك الآن أنَّ تلك الأحاسيس قد وصلتها منه ووصلته منها، لذلك كلَّما كان يصلُه أحساسٌ دافئٌ أو لمحةٌ من مشاعرٍ خرجت منها دون قصدٍ ولم تتمكن من إخفائِها، فإنَّه كان يتجاهل ذلك -لاشعوريًّا - ثمَّ يبادلُه - لاشعوريًّا أيضًا - بجفاءٍ وابتعادٍ مصطنعين يضافان إلى الجفاءِ المصطنعِ الذي ابتدعه بنفسِه لإخفاءِ وكبتِ حقيقة مشاعرهِ نحوها.

ولمدةِ سبع سنواتٍ كاملة كان هذا الجفاءُ المصطنعُ يضغطُ عليه ويصارعُ -داخل جدران نفسِه- مشاعرَه الدفينةَ نحوها، في حين

يبدو أنَّ هذا الجفاءَ ضاعف ما كان لدى "أمنية" من توترٍ تجاهه وغضبٍ منه، وهو غضبٌ كان يزدادُ بمقدارٍ ازديادِ مشاعرِها نحوه، وتوترٌ كان يتزايدُ بمقدارِ تزايُدِ أحاسيسها تجاهه، حيثُ يبدو أنَّها تمنَّت في نفسِها لو يخبرها بحقيقةِ مشاعرِه نحوها تلميحًا أو تصريحًا ولا يعاملها بهذا البرود.

كانت الساعةُ قد بلغت الحادية عشرة صباحًا، نظر إلى هاتفِه المحمول فوجد العديدَ من المكالماتِ التي لم يرد عليها، أخذ الهاتفَ واتصل بسكرتيرته وأخبرها أنَّه سيصلُ بعد ساعة.

في الساعةِ الثانيةِ عشرة ظهرًا، جلس "كمال" خلف مكتبِه الفخم، أرسل عقلَه وروحَه إلى منطقةٍ رماديةٍ بين الواقعِ والحلم، بين قسوةِ الحياةِ وزهوِ الخيال، بين صرامةِ قواعدِ المجتمعِ ورحابةِ ولا محدوديةِ الأمنيات، منطقة بين الكبتِ والإظهار، بين القُربِ والبُعد، بين الاهتمامِ والتجاهل، منطقة من الممكنِ أن يحدثَ فيها كلُّ شيءٍ أو لا يحدث فيها أيُّ شيء، ثمَّ اتصل بسكرتيرته وطلب منها أن ترسلَ باقةً من الزهورِ لصديقِه، وأن تعتذرَ له عن عدمِ قدرتِه على زيارتِه نتيجةَ انشغالِه الشديد، لقد قرر... أن يكتفيَ بالمنطقةِ الرمادية!

obeikan.com

"الجريمة!"

كان يمشي وحيدًا في إحدى حاراتِ حيّ شبرا الضيقةِ عائدًا من عملِه بعد اثنى عشرة ساعةٍ من العملِ المتواصلِ، كان ضيقُ الحارةِ يضغطُ عليه ويضيفُ المزيدَ إلى ضيقِه الشخصيَّ وضجرِه، كما زادت حرارةُ الجوِّ والرطوبة المرتفعة من إحساسِه بالضيقِ، وأضاف دخانُ السحابةِ السوداءِ -التى عادةً ما تغشى "القاهرة" في هذا التوقيتِ من صيفِ كلِّ عام- الكثيرَ من الضجرِ والمللِ والاختناقِ إليه حتى كادت جنباتُ نفسِه تفيضُ ضيقًا وزهقا وضجرًا واختناقًا.

وصل "مصعب" إلى بيتِه الصغيرِ المتواضعِ، حيثُ كان يسكنُ مع والدِه ووالدتِه وأخيه الأكبرِ في شقةٍ صغيرةٍ في الطابقِ الثاني في عمارةٍ صغيرةٍ تقعُ في آخرِ الحارةِ التي كان يسيرُ فيها.

كانت الساعةُ تقتربُ من التاسعةِ مساءً، قام برنّ جرسِ المنزلِ ففتح له أخوه الأكبر، وفورَ دخولِه الشقةَ انخرط في وصلةٍ من الشجارِ مع أخيه. كانت شجاراتُهما لا تكادُ تنتهي حتى تبدأ من جديدٍ رغمَ أنَّ فارقَ السنّ بينهما -والبالغَ خمسةَ عشر عامًا- من المفترضِ أن يكون قد جعل لكلٍّ منهما حياةً مستقلةً وبعيدةً عن الآخر.

كانت شجاراتُهما تتكررُ بشكلٍ يوميّ ولأسبابٍ شديدةِ الأهميةِ أو شديدةِ التفاهةِ وعن كلّ الأمورِ وفي جميعِ المواضيع. حيث كان الأخُ الأكبرُ يحاولُ دائمًا فرضَ سيطرته على كلّ ما يتعلقُ بـ"مصعب" وكان دائمَ التدخلِ في كلّ شئونِه بما في ذلك عمله وعلاقاتِه بأصدقائِه وحتى في حياتِه الزوجيَّةِ قبلَ طلاقِ "مصعب". ويرجعُ تاريخُ الأخِ الأكبرِ في محاولةِ فرضِ سيطرته على "مصعب" إلى طفولةِ الأخيرِ، حيثُ كان دائمَ التدخلِ في كلّ كبيرةٍ وصغيرةٍ في حياتِه بدءًا من مواعيدِ استيقاظِه ونومِه مرورًا بمَا يرتديه من ملابسٍ وصولًا إلى دراستِه وصداقاتِه بل وأيضًا هواياتِه. وكان "مصعب" كثيرًا ما يحاولُ التصدي لهذه التدخلاتِ منذُ كان طفلًا صغيرًا، ومع مرورِ الزمنِ وانتقالِ "مصعب" من

مرحلـةِ الطفولـةِ إلى المراهقـةِ ثـمَّ إلى الشـبابِ ازدادت حـدَّةُ شـجاراتِهما بشـكلٍ كبير، لازديـادِ ضجرِ "مصـعب" ورفضِـه لهـذا الوضـعِ ولاسـتمرارِ تجاهـلِ الأخِ الأكبرِ لحقيقـةِ أنَّ "مصـعب" يكبرُ وينضجُ مع مرورِ الأيام.

والآن فإنَّ "مصعب" على أبوابِ الثلاثين وشجاراتُه مع أخيه اتخذت حدَّةً غيرَ مسبوقةٍ وأصبحت علاقتُهما معًا لا تطاق وليس بها أيُّ عنصرٍ إيجابيٍّ على الإطلاق. كان الأخُ الأكبرُ غيرَ متزوجٍ ولم يسبق له الزواج، ويعملُ في وظيفةٍ حكوميةٍ ينتهي دوامُها الساعةَ الثانيةَ ظهرًا ممَّا يعني أنَّ لديه ساعاتٍ طويلةً من الفراغِ وجزءًا كبيرًا من عقلِه لا يعملُ وغير مشغولٍ بأيِّ شيءٍ ذي معنى، وكان الناتجُ الطبيعيُّ لهذا الوضعِ هو محاولةَ السيطرةِ على إخوتِه والتدخلِ في كلِّ أمورِهم. ومع مرورِ الزمنِ تزوج الأشقاءُ والشقيقاتُ جميعًا وأصبح الأخُ الأكبرُ يسكنُ فقط مع "مصعب" ووالديهما المسنين، وبالتالي أصبح الشخص الوحيد الذي يستطيعُ الأخُ الأكبرُ محاولة فرضِ السيطرةِ عليه والتدخلِ في شئونه هو "مصعب".

كانت شخصيةُ "مصعب" حادةً للغايةِ بطبعِها، شديدُ العصبيةِ، صعبُ المراس، سريعُ الانفعال، لا يقبلُ بالحلولِ الوسط، سليطُ اللسانِ وعنيفٌ لفظيًّا وجسديًّا، وكانت هذه التركيبةُ تضغطُ عليه كثيرًا في تعاملِه مع أخيه حيثُ أنَّ فارقَ الخمسةِ عشر عامًا يستلزمُ منه مراعاةَ الكثيرِ من قواعدِ الآدابِ واللياقةِ عند التعاملِ معه، وهو ما كان يرفضُه ويرفضُ تقبُّلَه.

ولكن في هذا اليومِ كان الغضبُ والضيقُ واليأسُ عند "مصعب" قد بلغوا مداهم، فقد كانت حياتُه مليئةً بالمشاكلِ، فقد فشل في الحصولِ على مؤهلٍ جامعي وانتهى به الأمرُ بأن يعملَ في وظيفةٍ متواضعةٍ في الشئونِ الإداريةِ في إحدى سلاسلِ المتاجرِ الكبرى وبمرتبٍ أشد تواضُعًا، كما أنَّه فشل في زواجِه وانفصل عن زوجتِه السابقةِ بعد أشهرٍ قليلةٍ من الزواج، كما كان يعاني من مشاكلٍ صحيةٍ نتيجةَ وزنِه الزائدِ إلى حدٍ كبير وعاداتِه الغذائيةِ السيئةِ وإهمالِه، والتى نتج عنها إصابتُه بفيروس الالتهاب الكبدي الوبائي. كلُّ هذه المشاكلِ وغيرها كانت قد وصلت إلى ذروتِها وأصبحت تضغطُ عليه بشكلٍ كبير، وتحطمُ ما تبقى من أعصابِه بشكلٍ تدريجيٍ لدرجةِ أنَّه لم يعد يحتملُ أو

يتقبلُ فكرةَ أن يحاولَ أخوه الأكبرُ التحكمَ فيه والسيطرةَ على حياتِه مرةً أخرى، خصوصًا وأنَّه مقتنعٌ إلى حدٍ كبيرٍ أنَّ كلَّ أسبابِ مشاكلِه وفشلِه في حياتِه ترجعُ إلى أخيه الأكبر.

فهو يعتقدُ أنَّ فشلَه في التعليمِ كان نتيجةَ تصرفاتِ أخيه الأكبر وطلباتِه وتحكماته التي لا تنتهي، لدرجةِ أنَّه طلب منه أن يعملَ بضعَ ساعاتٍ يوميًا في أحدِ محلاتِ الملابسِ القريبةِ من المنزلِ عندما كان لا يزال طالبًا في المرحلةِ الثانويةِ، ممَّا أدى به إلى الفشلِ في دراستِه حيثُ لم ينجح في الثانويةِ العامة إلا بعد ثلاثِ سنواتٍ متتاليةٍ من الرسوبِ وكان نجاحُه بمجموعٍ لا يؤهله للالتحاقِ بأيّ كليةٍ أو معهد.

كما كان مقتنعًا بأنَّ فشلَه في حياتِه الزوجيةِ كان نتيجةَ التدخلاتِ المستمرةِ لأخيه في كلّ شئونه الشخصيةِ، وكذلك خلافاتِ أخيه المستمرة وشجاراتِه مع زوجتِه السابقةِ وعائلتِها ممَّا أدى لحدوثِ كثيرٍ من المشاكلِ بين العائلتين نتج عنها الانفصالُ بعد ذلك.

كما كان متيقنًا بأنَّ مشاكلَه الصحيةَ بدأت مع حالاتِ الاكتئابِ التي لازمته منذُ طفولتِه نتيجةَ سوءِ معاملةِ أخيه له، وأدت تلك

الحالات من الاكتئابِ إلى معاناتِه من عدمِ انتظامٍ في التغذيةِ، ممَّا نتج عنه زيادةً كبيرةً في وزنِه وما استتبع ذلك من آثارٍ جانبيةٍ سيئةٍ على حالتِه الصحيةِ عمومًا.

دخل "مصعب" إلى غرفتِه بعد أن انتهى شجارُهما، وكانت هذه الغرفةُ أصلًا هي غرفةَ أخواتِهما البنات، وانتقل إليها "مصعب" بعد زواجِ آخرِ أخواتِه، ثمَّ أغلق على نفسِه البابَ وأخذ يفكرُ في وضعِه الحاليِّ وحياتِه بشكلٍ عام، وما إذا كان هناك شيئًا ما يستطيعُ أن يفعلَه ليغير حياتَه إلى الأفضل. ازداد اقتناعًا بأنَّ كلَّ أمورِه في الحضيضِ وبأنَّ حياتَه تسيرُ من سيءٍ إلى أسوأ، فوضعُه الماديُّ مزرٍ كما أنَّ وظيفتَه شديدةُ التواضعِ وبلا أيِّ مستقبلٍ مهني. أمَّا وضعُه العائلي فهو لا يقلُّ سوءًا، حيثُ أنَّ والدَه رجلٌ مسنٌ ودائمًا شاردُ الذهنِّ ووالدتُه مريضةٌ للغاية، وكلُّ ما سبق يؤدي إلى نتيجةٍ مفادها أنَّه لا يستطيعُ الزواجَ مرةً أخرى. كما أنه مقتنع بأن قطار التعليم قد فاته وليس باستطاعته اللحاق به أو تحسين وضعه التعليمي. ثمَّ أضاف إلى كلِّ ذلك علاقتَه شديدةَ السوءِ بأخيه الأكبرِ الذي يراه السببَ

الأساسيَّ لمعظمِ -إن لم يكن كل- فشلِه واحباطاتِه، فزاده التفكيرُ اعتقادًا واقتناعًا بأنَّه لا مجال لأيِّ تغييرٍ إيجابيٍّ في حياتِه.

تداعت كلُّ هذه الأفكارِ السلبيةِ -وبذاتِ الترتيبِ- في ذهنِه، وفي نفسِ لحظةِ تفكيرِه في مدى سوءِ علاقتِه بأخيه ومدى مسئوليةِ هذا الأخيرِ عمَّا آلت إليه حياتُه من فشلٍ مستمر، اقتحم أخوه غرفتَه وأخذ يصرخُ فيه بصوتٍ عالٍ وبطريقةٍ جنونيةٍ معترضًا على أنَّ "مصعب" قد نسي إغلاقَ مفتاح إضاءةِ الصالةِ قبل دخولِه غرفته! أخذ الأخُ الأكبرُ يصرخُ بصوتٍ عالٍ لمدةٍ اقتربت من ثلاثِ دقائقٍ كاملةٍ كان "مصعب" أثناءَها -على غيرِ العادةِ- صامتًا تمامًا لا يرد عليه ولا ينظر إليه وإنَّما تركه حتى انتهى ممَّا يريدُ قولَه، ثمَّ بعد أن غادر أخوه الغرفةَ أغلق وراءَه الباب، ولكن هذه المرة أغلقه بالمفتاح.

كان الغضبُ والضيقُ والملـلُ واليأسُ والإحساس بالظلم والعجز وقلة الحيلة قد وصلوا بـ"مصعب" إلى المنتهى وأصبح لا يرى نورًا في نهايةِ نفقِ حياتِه المظلمِ الذي يعتقدُ أنَّ أخاه قد وضعه فيه. ومع إغلاقِه لنورِ مصباحِ غرفتِه ومع لحظةِ إظلامِ

الغرفةِ جاءته فكرةٌ لا تقلُّ ظلامًا عن ظلامِ الغرفةِ: لقد قرر التخلصَ من سببِ إظلامِ حياتِه، لقد قرر التخلصَ من أخيه!

كان "مصعب" قد وصل إلى مرحلةٍ كَفَرَ عندها بكلِّ معاني صلةِ الرحمِ والاعتباراتِ الدينيةِ والأخلاقيةِ والاجتماعيةِ التى تحكمُ علاقتَه بأخيه، كان يرى بأنَّه قد ضاع من عمرِه ثلاثون عامًا كاملةً نتيجةَ سيطرةِ أخيه عليه، وهي السيطرةُ التي يعتقدُ أنَّها قادته من فشلٍ إلى فشل. لقد أصبحت حياتُه جحيمًا لا يطاق، ليلٌ طويلٌ ومن فرطِ طولِه بات مقتنعًا أنَّه لا نهار بعدَه، وهو الآن قد قرر التخلصَ من السببِ الرئيس الذي أوصله لما هو فيه.

للحظاتٍ معدودةٍ استغرب نفسَه، تساءل: كيف جاءته هذه الفكرة؟ هل يستطيعُ اليأسُ أن يفعلَ بالإنسانِ كلَّ هذا؟ هل يمكنُ لفقدانِ الأملِ أن يجعلَ الإنسانَ يهجرُ إنسانيتَه ويحرك بداخلِه غرائزَ انتقامٍ لا توجدُ إلَّا عند الحيواناتِ المفترسة؟ هل يمكنُ لتراكمِ المشاعرِ السلبيةِ على مرِّ السنين أن يدفعَ الإنسانَ إلى اتخاذِ قراراتٍ بهذا العنف؟ هل يمكنُ للكراهيةِ أن تلغيَ أيَّ أثرٍ للاعتباراتِ الدينيةِ والأخلاقية؟

ولكنَّه لم يفكر كثيرًا؛ ربَّما كان عقلُه الباطنُ قد اتخذ القرارَ منذُ فترةٍ والآن فقط حان وقتُ التنفيذ. فحتى لو تمَّ اكتشافُ أنَّه القاتلُ ونُفِّذ فيه حكمُ الإعدامِ فليس لديه شيءٌ يخسرُه، أمَّا إذا دخل السجنَ فحياتُه في السجنِ ستكونُ أفضلَ من حياتِه الآن. إذًا فقد تمَّ اتخاذُ القرارِ ولا تراجع عنه.

ارتدى ثيابَه، وذهب إلى صيدليةٍ في الشارعِ المجاورِ، اشترى سُمًّا قويًّا للفئرانِ وزجاجةً من دواءِ الكحةِ الذي يتناولُه أخوه ثمَّ عاد إلى المنزل، فتح باب ثلاجتِهم القديمةِ وأخذ زجاجةَ دواءِ الكحةِ سيّءِ الطعمِ الذي كان أخوه يتناولُه، نتيجةَ إصابتِه بنزلةِ بردٍ بسببِ كثرةِ نومِه أمامَ المروحةِ، ثمَّ وضع كميةً كبيرةً من السُّمِّ في زجاجةِ الدواء، كما أذاب في الزجاجةِ أيضًا ثلاثَ حبَّاتٍ منومة، وظل مستيقظًا في انتظارِ ما سيحدث. بعد نحوِ ساعتين استيقظ أخوه ثم اتجه إلى الثلاجة، أخذ ملعقتين من الدواءِ ثم عاد إلى غرفتِه ونام، ولكنَّه لم يستيقظ مرةً أخرى.

بعد أن تناول الأخُ الأكبرُ دواءَ الكحةِ وعاد إلى غرفتِه، ذهب "مصعب" إلى الثلاجةِ وأخرج زجاجةَ الدواءِ ثمَّ قام بإفراغِها في حوضِ الحمامِ واستبدلها بالزجاجةِ الأخرى التي اشتراها بعد أن أفرغ بعضًا من محتواها للإيحاءِ بأنَّها استُعمِلت قبل ذلك، ولكنَّه

وضعها فوقَ الثلاجةِ بجانبِ زجاجةِ دواءٍ أخرى خاصة به، وعلى الطرفِ الآخرِ من الثلاجةِ وضع زجاجةَ السُّمِّ بجانبِ زجاجةٍ أخرى لسائلِ غسيلِ الصحون.

كان التفسيرُ - الذي بدا منطقيًّا - والذي استنتجته الأسرةُ بكاملِ أفرادِها هو أنَّ الأخَ الأكبرَ تناول السُّمَّ بالخطأ بدلًا من الدواءِ، وكان هذا أيضًا هو التفسيرَ الوحيدَ الظاهرَ أمامَ ضابطِ الشرطةِ المتأفِّفِ المتعجِّلِ، الذي جاء للتحقيقِ الروتينيِّ بعد أن بيَّن التقريرُ الطبيُّ أنَّ سببَ الوفاةِ هو التسمم، وبِنَاءً عليه أُغلق ملفُ القضية.

بعد أن تمَّ دفنُ الأخِ الأكبر، لم يحس "مصعب" بالذنب، وقد استغرب هو نفسه ذلك، إلَّا أنَّه أقنع نفسَه بأنَّه فعل ما يجب أن يفعل وأنَّ الأخَ الأكبر استحق المصيرَ الذي آل إليه، وأنَّ أخاه الأكبر هو الذي قضى على إنسانيتِه بالتدريج منذُ طفولتِه.

وبعد مرورِ عامٍ كاملٍ على ما حدث، كان "مصعب" يمشي وحيدًا في نفس الحارةِ الضيقةِ وفي ذاتِ المكانِ الذي شهد وصولَ يأسِه إلى منتهاه ووصولَ حنقِه على أخيه إلى ذروتِه، ومع نفسِ درجةِ حرارةِ الجوِّ العاليةِ والسحابةِ السوداءِ التي تجعلُ التنفسَ صعبًا، أخذ "مصعب" يراجعُ نفسَه لأولِ مرةٍ بعد فعلتِه

الشنعاء، لقد ارتكب جُرمًا عظيمًا وقتل أخاه الذي كان يراه السببَ الوحيد في فشلِه وتحطيمِ حياتِه، فما الذي تغير في حياتِه بعد ذلك؟ إنَّه لا زال يعملُ في نفسِ الوظيفةِ المتواضعةِ، لم يطوِّر نفسَه في أيِّ منحى من مناحي الحياة، لا زال والداه على حالِهما، لا زالت ظروفُه الماديةُ سيئةً ولا زال غيرَ قادرٍ على الزواج، لا زال يعيشُ في نفسِ الشقةِ الموجودةِ في نفسِ العمارةِ التي تقعُ في نفسِ الحارةِ التي يعيشُ فيها منذُ واحدٍ و ثلاثين عامًا، كما لا زالت شخصيتُه حادةً ومكروهةً ولا زال مرفوضًا اجتماعيًّا وبلا صداقاتٍ ذات معنى، لم يتغير في حياتِه إلا شيءٌ واحدٌ وهو أنَّه أصبح مجرمًا!

ولأولِ مرةٍ أدرك "مصعب" وقتها الحقيقةَ المُرَّة وهي أنَّه ظلَّ ثلاثين عامًا يبحثُ عن سببٍ ومبررٍ لفشلِه وإحباطِه وشماعةٍ يعلقُ عليها إخفاقاتِه، وكان المبررُ موجودًا وجاهزًا أمامه، وكلُّ ما فعله عندما أراد تحسينَ وضعِه أنَّه أقنع نفسَه أن يتخلصَ من المبررِ الذي اختلقه بنفسِه دون أن يكلِّفَ نفسَه عناءَ تغييرِ ذاتِه ومعالجةِ أسبابِ فشلِه، ثمَّ بعد ذلك ظل كما هو: فاشلًا كئيبًا محبطًا بائسًا يائسًا وحيدًا... وأيضًا مجرمًا ودون مستقبل!!

obeikan.com

"لقاء ثانٍ"

كانت عقاربُ الساعةِ تشيرُ إلى الثامنةِ صباحًا عندما انطلق القطارُ المتجهُ إلى "الأسكندرية" من محطةِ قطارات رمسيس بالقاهرة. كان "حازم" يجلسُ في مقعدِه بالدرجةِ الأولى وقد فضل السفرَ بالقطارِ لأنَّه كان يخططُ للعودةِ في نفسِ اليومِ بعد أن يقضيَ في "الأسكندريةِ" بضعَ ساعاتٍ فقط، وذلك لحضورِ أحدِ الاجتماعاتِ الهامة. قرر "حازم" أن يستثمرَ وقتَ الرحلةِ في القراءةِ حيثُ أحضر معه كتابًا متخصصًا في إدارةِ الأصولِ الماليةِ في البورصة.

كان "حازم" متخصصًا في مجالاتِ أسواقِ المالِ والبورصاتِ والاستشاراتِ الماليةِ بأنواعِها ويعتبرُ من أكفأ العناصرِ التي تعملُ في هذا المجالِ في السوقِ المصري، وتمتدُ خبرتُه الوظيفيةُ إلى

ثمانيةٍ وعشرين عامًا، حيثُ بدأ موظفًا في أحدِ البنوكِ ثمَّ انتقل للعملِ في مجالِ البورصةِ وأسواقِ المالِ في منتصفِ التسعينيات.

بدأ "حازم" تدريجيًا التركيزَ في القراءة، ومع الوقتِ أخذ ينفصلُ عمَّا يحيطُ به، ولكنَّه فجأةً وجد سيدةً محجبةً على بُعدِ خطوةٍ واحدةٍ منه تسأله: "حازم البدري"؟

فوجئ "حازم" بها ورفع عينيه من على الكتابِ واتجه بهما إليها قائلًا: أجل. وارتبك قليلًا من المفاجأةِ وانتظر منها أن تكملَ حديثها وتعرفه بنفسِها، إلَّا أنَّه بعد أن أمعن النظرَ إليها لمدةِ ثانيتين فقط أدرك أنَّه يعرفُ هذا الوجه، يعرفُه منذُ زمنٍ فات وعمرٍ مضى، يعرفُه معرفةً وثيقةً وراسخة، ولكنَّه يألفُه أصغرَ عمرًا وأكثرَ حيويةً وشبابًا وبالتأكيدِ دونَ حجاب.

قالت له -لتذكره بنفسِها حيث لم تتأكد بعد أنَّه يتذكرها-: أنا "منى" يا "حازم".

فقال لها بابتسامة: طبعًا يا "منى"، "منى الراوي"... ثمَّ أضاف في نفسِه: وهل يمكنُ أن أنساكِ يا "منى"؟!

أخذ شهيقًا عميقًا، ربَّما ليستوعب مفاجأةَ اللقاءِ بعد أكثر من خمسةٍ وعشرين عامًا مضت على آخرِ لقاءاتِهما معًا.

ثمَّ قال لها: كيف حالك يا "منى"؟ وما أخبارُك؟... لقد تغيرتِ كثيرًا.

فأجابت: الحمد لله، لقد تزوجتُ منذُ ثلاثةٍ وعشرين عامًا وأنجبتُ ولدًا وبنتًا، وأنت؟

فأجاب "حازم" -بعد أن دعاها إلى الجلوسِ على المقعدِ الشاغرِ بجانبِه-: الحمد لله، أعملُ حاليًا في شركتِي الخاصةِ للاستشاراتِ المالية، وتزوجتُ من عشرين عامًا وعندي بنتٌ واحدة.

فقالت له "منى" بشكلٍ عفوي: شكلُك مختلفٌ تمامًا بدونِ لحية.

فأجاب مبتسمًا (وكأنَّما تذكر فجأةً أنَّه ظل بلحيةٍ خفيفةٍ لستةِ عشر عامًا أو يزيد!): لقد حلقتها منذُ زمن... منذُ ما يقربُ من خمسةِ عشر عامًا، ولقد كانت لحيةً خفيفةً على أيةِ حال! ثم أضاف: وأنت أيضًا شكلُك مختلفٌ تمامًا بالحجاب.

فقالت: لقد تحجبتُ بعد أن أنجبتُ ابني الأصغرَ بعامين (قالتها باستغرابٍ وكأنَّما رؤيتَها لـ"حازم" وحديثَها معه أعادا لها ذكرياتِ رفضِها للحجابِ في مقتبلِ شبابِها)، أي منذُ ستةِ عشر عامًا تقريبًا، وهو نفسُ الوقتِ الذي تركتُ فيه العملَ لكي أتفرغ لزوجي وأولادي.

فعلق "حازم" متعجبًا: هل تركتِ عملَك في إحدى أفضلِ وأرقى الإدارات في مجال البنوكِ وهي غرفةُ التداولِ؟! ثمَّ أردف بمزيدٍ من التعجُّبِ: لقد كنتِ تعملين في أكبرِ بنوكِ القطاعِ الخاصِ في مصر.

فأجابت: نعم... وقد استقلت بعد أن وصلتُ إلى درجةِ مدير، ولكنَّني فضَّلتُ التفرغَ لأسرتي (قالتها وجزءٌ منها فخورٌ بالقرارِ وجزءٌ آخرٌ يستشعرُ ندمًا على فرصةٍ ضاعت بعد أن كانت في اليد، وإنجازٍ تبخر بعد أن تحقق بالكدِّ والتعبِ والطموحِ وكان يمكنُ بناء الكثيرِ عليه).

صمتا لبرهةٍ من الوقت، حيثُ كان كلٌّ منهما يحاولُ استيعابَ التغيراتِ التي حدثت للطرفِ الآخرِ ولنفسِه أيضًا، فقد كانا وكأنَّما يتعرفان على بعضِهما من جديدٍ ويتعرفان على نفسيهما من جديدٍ أيضًا، كانا كأنَّما يتذكران بعضَهما ويتذكران نفسيهما في ذاتِ الوقت. أيقظ حوارُهما مناطقًا في الذاكرةِ كانت ساكنةً لفترةٍ من الزمن، وهو سكونٌ بدأ ثمَّ نما تدريجيًا فلم يحس به العقلُ الواعي أو الباطن، حتى عندما اكتمل أصبح نومًا كاملًا لمناطقٍ في الذاكرة، نومٌ يُنسي الإنسانُ ما كانه ويساعده في التحولِ إلى ما سيكونُه.

ثمَّ سألته "منى" بفضولٍ وتعجب: لقد قلتَ أنَّك تعملُ في شركتِك الخاصة، ولكنَّك دائمًا كنتَ تفضلُ الوظيفةَ المستقرةَ والدخلَ الثابتَ المضمون، فكيف اتخذتَ قرارَ تأسيسِ شركتك وترك وظيفتك في البنكِ الحكومي؟

فأجاب "حازم" بعد صمتٍ دام لعدَّةِ ثوان (وكأنَّما تذكر نفسَه منذُ سنواتٍ مضت عندما كان يخشى أدنى مخاطرة ويتردد في قبولِ أيّ فكرةٍ جديدة): كما تعلمين لقد عملتُ في وظيفةٍ واحدةٍ روتينيةٍ في البنكِ لسنواتٍ طويلة، ولكنَّني بعد ذلك قررتُ الانتقال - داخلَ نفسِ البنك - إلى إدارةِ الائتمان، وفيها تعلمتُ الكثيرَ عن الجرأةِ في اتخاذِ القرارِ وقبولِ الأفكارِ الجديدةِ بما فيها من مخاطرٍ أو خسائرٍ محتملة، وبعد ذلك قررتُ تأسيسَ شركتي الخاصة، لأنَّني أدركتُ أنَّ الحياةَ بلا مخاطرةٍ محسوبةٍ تكونُ مملةً وبلا طعمٍ، وربَّما أيضًا بلا نجاحٍ حقيقي. والحمدُ لله، فبعد اثني عشر عامًا من العملِ في مجالِ الاستشاراتِ الماليةِ وأسواقِ المال، أصبحت شركتي من الشركاتِ الناجحةِ في هذا المجال.

بعد ذلك طلبا فنجانين من الشاي، وأجرى كلٌّ منهما عدَّةَ اتصالاتٍ من هاتفِه المحمول، وبعد عدَّةِ ثوانٍ من وصولِ الشاي استأنفا الحوارَ حيثُ بادرها "حازم" بالسؤال: ماذا يعملُ زوجُك؟

فأجابت: مدرسًا للتاريخِ بإحدى المدارسِ الثانوية.

حاول "حازم" إخفاءَ تعجبٍ ودهشةٍ كبيرين من كيفيةِ قبولِ "منى" التي يعرفُها (أو بالأحرى التي يتذكرُها) من الزواجِ من شخصٍ يعملُ في وظيفةٍ شديدةِ الروتينية مثل هذه الوظيفة. وصل إلى "منى" إحساس "حازم" بهذا التعجبِ وبهذه الدهشةِ، وبدا وكأنَّها تسألُ نفسَها أيضًا كيف تزوجت من شخصٍ روتينيٍّ يعملُ في وظيفةٍ روتينيةٍ، وهي التي كانت في شبابِها ترى أنَّ الوظيفةَ ذاتَ الطبيعةِ المتجددةِ والتحدياتِ المستمرةِ وفرصِ الاتصالِ الكبيرةِ بالسوقِ تمثلُ جزءًا من الشخصيةِ المتجددةِ والناضجةِ للرجلِ، وتمثلُ أيضًا عاملًا مهمًا في زيادةِ فرصِ النموِ أمامَه وبالتالى زيادةِ دخلِه. إلَّا أنَّها حاولت مغالبةَ التفكيرِ في إجابةِ هذا السؤال، ثمَّ أخرجت من حقيبتِها صورةً لها مع زوجِها وأولادِها لتريها لـ"حازم"، نظر "حازم" إلى الصورةِ فوجد الزوجَ له لحيةٌ خفيفةٌ وزبيبةُ صلاةٍ كبيرةٌ وواضحةٌ على جبهتِه، أمَّا ابنتُها الكبرى فكانت محجبةً ومرتديةً خمارًا غامقَ اللون، في حين كان ابنُها الأصغرُ حليقَ الرأسِ ولديه زبيبةُ صلاةٍ صغيرةٌ على جبهتِه. وعندها أخرج "حازم" صورةً من محفظتِه له مع عائلتِه ليريها

لـ"منى". نظرت "منى" إلى الصورةِ فوجدت زوجتَه وابنتَه غير محجبتين بل ترتديان ملابسًا عصريةً متحررة.

تعجبت "منى" من الصورةِ وسألته: هل زوجتُك غير محجبة؟

فأجاب بابتسامةٍ خفيفة: نعم زوجتي غير محجبةٍ (بدا هنا وكأنَّه يتعجبُ ممَّا يقول حيثُ تذكر سنواتٍ طويلةً في حياتِه ظل فيها يرفضُ مبدأً أن يرتبطَ بفتاةٍ غيرِ محجبة!).

ثمَّ سألته: وهل تعملُ زوجتُك؟

فأجاب: نعم... في مجالِ تصميمِ الأزياء.

فوجئت "منى" من إجابتِه فهي تتذكرُ عنه أنَّه كان يرفضُ فكرةَ الارتباطِ بزوجةٍ عاملة، كما بدا أيضًا وكأنَّ دهشةَ "منى" من إجابتِه قد انعكست عليه، وجعلته يتذكر فترةً طويلةً من عمرِه كان يرفضُ فيها فكرةَ عملِ الزوجة.

ساد بينهما صمتٌ طويلٌ نسبيًا هذه المرة، فقد كان كلٌّ منهما يحاولُ استيعابَ ما تغير في نفسِه أولًا ثمَّ استيعابَ ما تغير في الآخر. ليس هذا فقط ولكن بدأ شريطُ الذكرياتِ يتحركُ في رأسِ كلٍّ منهما، وبدأ كلٌّ منهما ينقبُ في مخازنِ ذاكرتِه ليتذكر كلَّ شيءٍ عن نفسِه وعن الطرفِ الآخرِ وعن علاقتِه بالآخر.

وبدأت الذاكرةُ تعملُ لديهما في صمت، فقد التقيا أولَ مرةٍ في أولى سنواتِ دراستِهما الجامعيةِ في كليةِ التجارةِ بجامعةِ "عين شمس". كان "حازم" من أسرةٍ بسيطةٍ غيرِ ميسورة، وكانت شخصيتُه أقربُ إلى المحافظةِ والتزمتِ الدينى والتقليدية. في حينِ كانت "منى" من أسرةٍ ميسورةِ الحالِ وكانت تمتلكُ سيارتَها الخاصةَ التي تأتي بها إلى الجامعةِ وكانت شخصيتُها أقربُ إلى التحررِ والانطلاقِ والتجديد. كان هو عضوًا في إحدى الأسرِ الجامعيةِ المعروفةِ بنشاطِها الثقافيِّ والديني، في حينِ كانت هي عضوةً في فريقِ التمثيلِ في الكلية. وعلى الرغمِ من كلِّ هذه الاختلافاتِ، فقد نشأ ونما بينهما حبٌّ غريبٌ وهادئ، عميقٌ وتدريجي، بدأ بإعجابٍ من النظرةِ الأولى ثمَّ أخذ يكبرُ ويزدادُ يومًا بعد يوم، وأسبوعًا بعد أسبوع، وعامًا بعد عام حتى اعترف كلٌّ منهما للآخرِ بمشاعرِه وهما في السنةِ الجامعيةِ الأخيرة.

كانا يتبادلان الأفكارَ المختلفةَ ويحاولان احتواءَها بمشاعرِهما الجياشةِ وحبِّهما القوي، كان حبُّهما صادقًا إلى أبعدِ الحدود، ومتجذرًا داخلَ أعماقِ وجدانهما، كانا لا يريان اختلافاتِهما - على كثرتِها - إلَّا سببًا للتكاملِ ووسيلةً للنَّظرِ إلى الحياةِ بأكثرِ من وجهةِ

نظـر. واسـتمر وازداد هـذا الحـبُ المتـدفقُ حتى بعـد تخرجِهمـا بعـامين، عنـدها قـرر "حـازم" أن يتقـدمَ لخطبتِهـا بشـكلٍ رسـميٍّ محـاولًا التغلـبَ على كلِّ هـذه الاختلافـاتِ والفـروقِ بينهمـا، إلَّا أنَّ أهلَها اعترضوا على هذا الحبِّ وعلى مشروعِ الارتباطِ بينهما.

كانت وجهةُ نظرِ والديها أنَّ هذا الزواجَ لا يمكنُ له أن ينجحَ حيثُ أنَّهمـا مختلفـان تمامًـا عـن بعضِـهما في الطبـاعِ والصـفاتِ والطموحـاتِ وفي المسـتوى الماديِّ والاجتمـاعي، فـ"حـازم" تقليـديٌّ متزمتٌ يـرفضُ عملَ المرأةِ ويريـدُ زوجتَـه سـيدةَ منزلٍ محجبـة، في حينِ أنَّ "منى" متحررةٌ مثقفةٌ تؤمنُ بحريةِ المرأةِ وحقِّها في اختيارِ مسـتقبلِها ووظيفتِهـا وملبسِـها وطريقِـة حياتِهـا. كمـا أنَّ "حـازم" وظيفتُـه متواضـعةٌ وفي إدارةٍ متواضـعةٍ في بنـكٍ حكـوميٍّ ولـيس لديـه الطمـوحُ لتطـويرِ نفسِـه، في حـينِ أنَّ "منى" وظيفتُهـا ممتـازةٌ كما أنَّها دائمةُ العملِ على تطويرِ قدراتِها ومهاراتِها. وأخيرًا الفوارقُ الاجتماعيةُ والماديةُ وهي ليست في صالحِ "حازم" على الإطلاق.

تذكرا كلَّ هذا ثمَّ عادا إلى أرضِ الواقعِ مرةً أخرى، وبعد أن نظرا لبعضِـهما في صـمتٍ وسـكونٍ لبرهـةٍ قصـيرة سـألها "حـازم": لماذا أنتِ مسافرةٌ إلى "الأسكندرية"؟

فأجابت: بأنَّ ابنتَها الكبرى قد تزوجت منذُ شهرين وتقيمُ مع زوجِها في "الأسكندرية"، وهي ذاهبةٌ اليوم لزيارتِها. ثمَّ سألته بدورها عن سببِ سفرِه للأسكندرية فأخبرها عن الاجتماعِ الذي سيحضره والصفقةِ التي سينهيها. فتعجبت - أو لعلها قد أعجبت - بأنَّه أصبح من رجالِ الأعمالِ الذين ينهون صفقاتٍ بمبالغٍ كبيرةٍ في عدةِ ساعات.

فقالت له بابتسامة: من الواضحِ أنَّك أصبحت من رجالِ الأعمال.

فضحك وقال: من "صغار" رجالِ الأعمال!

فضحكت وسألته: وأين تسكنُ الآن؟ بالتأكيدِ تركت الحيَّ الشعبيَّ الذي كنت تسكنُ فيه مع أهلِك.

فابتسم "حازم" ثمَّ قال: اسكنُ حاليًا في مدينة نصر... قريبًا من عمارتكم.

فصمتت "منى" لبرهةٍ بفعلِ الدهشة، ثمَّ قالت متعجبةً: حقًا؟!

فأجاب: نعم، بعد العمارةِ التي تمتلكونها بحوالي مائةِ متر.

فقالت "منى": ولكنَّنا بعنا هذه العمارةَ منذُ زمن.

فقال "حازم" مندهشًا: حقًا؟! لماذا؟

فأجابت "منى" بصوت به بعضُ الحزن: نعم، بعناها منذُ عشرِ سنواتٍ تقريبًا عندما مررنا بضائقةٍ ماليةٍ فاضطررنا لبيعِ معظمِ ما نملك، ثمَّ حاولت إزالةَ نبرةِ الحزنِ عن صوتِها وسألته: ومتى انتقلت أنت لبيتِك الجديد؟

فأجاب: منذُ عشرِ سنواتٍ تقريبًا حيثُ اشتريتُ خمسةَ أدوارٍ في ذلك البرج، ثمَّ أردف ضاحكًا: وبالطبعِ أنا أعيشُ مع عائلتِي في دورٍ واحدٍ فقط وبقيةُ الأدوارِ أقومُ بتأجيرِها.

بدت حياةُ كلٍّ منهما وكأنَّها صورةٌ معاكسةٌ لحياةِ الآخر، فكلٌّ منهما ابتعد عمَّا كان عليه متجهًا إلى ما كان عليه الآخر، وكلٌّ منهما ترك ما كان فيه واتجه إلى حيثُ الآخر، حتى الظروفُ الماديةُ تبدَّلت. لم يفهما ما الذي حدث، هل هي الحياةُ بتدابيرِها والزمانُ بتصريفاتِه والقدرُ بترتيباتِه؟ أم هو الحبُّ العميقُ الصادقُ الذي جعل كلًا منهما يتَّجهُ بكليتِه إلى الآخرِ فكرًا وطموحًا ومكانةً ومكانًا؟ هل حاول كلٌّ منهما التقربَ للآخرِ بوجدانِه وظروفِه وطريقةِ حياتِه لعلَّه يستطيعُ أن يلامسَ روحَ محبوبِه بعد أن أجبر على الابتعادِ عنه بجسدِه؟

سألها "حازم" عن ابنِها فأجابت: إنَّه حاليًا في أولى سنواتِ دراستِه الجامعيةِ في كليةِ الصيدلة، وبدورِها سألته عن ابنتِه.

فأجاب: إنَّها في كليةِ الإعلامِ وفي عامِها الجامعيّ الأولِ أيضًا، ثمَّ أضاف مبتسمًا: هي تشبهُكِ كثيرًا طباعًا وسلوكًا وطموحات... عندما كنتِ في مثلِ عمرِها.

فقالت له "منى": وابني أيضًا يشبهُكَ كثيرًا... عندما كنتَ في مثلِ عمرِه، وأضافت مبتسمةً: حتى أنَّه قرر منذُ شهرٍ أن يربي لحيةً خفيفةً مشابهةً لتلك التي حلقتها أنت منذُ أعوام.

فابتسم "حازم" ثمَّ سألها: ما اسم ابنك؟

فأجابت بابتسامةٍ وهدوء - وهي تنظرُ من شباكِ القطارِ حتى لا تلتقي عيناها بعينيه -: "حازم"! ... وابنتك؟

فأجاب مبتسمًا: ... "منى"!

"صداقةٌ مع إيقافِ التنفيذ"

كانت عقاربُ الساعةِ تشيرُ إلى الثامنةِ مساءً، كلُّ القنواتِ الفضائيةِ لم يكن بها ما يستدعي اهتمامَها، كلُّ الجرائدِ والمجلاتِ المتاحة انتهت من قراءتِها، كلُّ المواقعِ الإلكترونيةِ بما فيها مواقع التواصلِ الاجتماعي أصابتها بالملل، فكرت "وفاء" فيما يمكن أن تفعلَه لكسرِ حالةِ الجمودِ التي أصابتها منذُ عدَّةِ أسابيع، أخذت تفكرُ في كلِّ الأنشطةِ الممكنِ مزاولتها وكلِّ الأصدقاءِ الذين يمكنُ أن تخرجَ معهم لقضاءِ بعضِ الوقت، إلَّا أنَّ كلَّ البدائلِ التي فكرت فيها لم يكن بها ما يشجعُها على الخروجِ من مرحلةِ التفكيرِ إلى مرحلةِ الفعل.

أخذت "وفاء" تستعرضُ الأسماءَ المسجلةَ لديها على هاتفِها المحمول، ولفت نظرَها اسمُ صديقةٍ لها لم يتواصلا معًا منذُ عدَّةِ سنوات، ولكنَّهما قبل ذلك كانتا مقربتين من بعضِهما للغاية

ومع مرور الوقت ابتعدتا تدريجيًّا نتيجةَ ظروفِ الحياةِ والعملِ والزواج.

فكرت "وفاء" في الاتصالِ بصديقتِها التي تعرفُها منذُ أيامِ الدراسةِ الإعداديةِ ثمَّ الثانويةِ ثمَّ الجامعية، وبالفعلِ أمسكت "وفاء" بهاتفَها المحمول ثمَّ اتصلت بصديقتِها "هناء"، رن الجرسُ عدَّةَ مراتٍ ولم يجب أحد، قالت في نفسِها: لعلَّ "هناء" مشغولةٌ أو لعلَّ رقمَ هاتفي قد مُسح من هاتفِها لسببٍ أو لآخر، وبعد ساعةٍ تقريبًا، رن هاتف "وفاء"، فنظرت إلى شاشتِه فإذا بها صديقتها "هناء"، فرحت للغاية وأمسكت الهاتفَ لتجيب: ألو.

فردَّت "هناء": كيف حالُك يا "وفاء"؟

فأجابت "وفاء" بصوتٍ به فرحةٌ تعكسُ سماعَ صوت صديقةٍ عزيزةٍ بعد فترةِ انقطاعٍ طويلةٍ وكذلك فرحة أنَّ صديقتَها لا زالت محتفظةً برقمِها: الحمدُ لله، كيف حالُك أنتِ يا "هناء"؟ لقد افتقدتُكِ كثيرًا.

فأجابت "هناء": الحمدُ لله، وأنا أيضًا افتقدتُكِ كثيرًا واشتقتُ كثيرًا لجلساتِنا وحواراتِنا.

فقالت لها "وفاء": وأنا كذلك، حبَّذا لو استطعنا اللقاءَ فآخرُ لقاءٍ بيننا كان منذُ ثلاثِ سنوات.

فردَّت "هناء": أجل، أتذكرُ هذا اللقاءَ جيِّدًا، عندما جئتِ إلى منزِلي لتهنئتِي بالزواجِ بعد عودتِي من شهرِ العسل، وأتذكرُ جيِّدًا إعجابَك بصورِ شهرِ العسلِ في "باريس" و"برشلونة"، لماذا لا تأتين لزيارتي غدًا؟!

فأجابت "وفاء" متعجبةً وفرحةً في نفسِ الوقت: غدًا؟ بهذه السرعة؟!

فأجابتها "هناء": نعم، السرعةُ أفضلُ من التأجيل، وبصراحةٍ أنا لا أريدُ التأجيلَ مطلقًا كما أنَّني أشعرُ بشيءٍ من الحزنِ والندمِ بسبب أنَّنا لم نلتقِ منذُ ثلاث سنواتٍ كاملة، فقد كنَّا في المرحلةِ الإعداديةِ والثانويةِ والجامعيةِ لا نكادُ نفترقُ وكذلك طيلة سنواتِ عملِنا في التدريسِ كنَّا أكثرَ من شقيقتين.

فعلَّقت "وفاء": معكِ حق، وأنا أشاركُكِ نفسَ الشعور، ولا زلتُ أتذكَّرُ فترةَ الجامعةِ عندما كنَّا نذاكرُ سويًّا ونحضرُ المحاضراتِ معًا، وكذلك كنَّا لا نفترقُ في النزهات رغم أنَّكِ التي كنتِ تحظين بالنصيبِ الأكبرِ من المعاكسات.

فضحكتا معًا ثمَّ قالت "هناء": سأنتظرُك غدًا الساعة الثامنة مساءً.

فوافقتها "وفاء": حسنًا، موعدٌ مناسبٌ بحيثُ أتمكنُ من العودةِ للمنزلِ بعد انتهاءِ اليومِ الدراسيِّ لأبدِّلَ ثيابي ثمَّ آتي إليك.

فسألتها "هناء": هل تتذكرين مكانَ المنزل؟

فأجابت "وفاء": نعم، أتذكرُ المجمَّعَ السكنيَّ المغلق الذي تسكنين فيه وأتذكَّرُ مكانَه في أحدِ الأحياءِ الراقيةِ في "القاهرة الجديدة"، كما لازلتُ أحتفظُ عندي برقمِ (الڤيلا) ولم أنسَ موقعَها داخل المجمَّع.

فقالت لها "هناء": حسنًا، ولكنَّني أفضل أن أرسلَ لكِ سيارتِي مع السائقِ لتكونَ عندك الساعة السابعة بالضبط، ما رأيك؟

فأجابت "وفاء": لا داعي لإرسالِ السيارة، سأستقلُ إحدى سياراتِ الأجرة، فرفضت "هناء" وألحَّت عليها فاضطرت "وفاء" للموافقةِ ثمَّ أنهتا المكالمة.

في اليومِ التالي، وبعد أن أنهت "وفاء" يومَها الدراسيَّ حيثُ كانت تعملُ مدرسةً للغةِ الإنجليزية في إحدى المدارسِ الثانويةِ التجريبية، عادت إلى منزلِها في أحدِ الأحياءِ التي يقطنُها عادةً ذوي

الدخلِ المتوسط، وفي أثناءِ عودتِها مرَّت أمام المنزلِ القديمِ الذي كانت تسكنُ فيه "هناء" قبل أن تنتقلَ إلى ڤيلتِها الحالية، حيثُ كانت "هناء" تسكن في شقةٍ في بنايةٍ قديمةٍ تقعُ على بعد حوالي مئتي مترٍ من مسكنِ "وفاء" الحالي، أمّا "وفاء" فهي لم تُغير مسكنَها، فلا زالت تعيشُ مع والدِها ووالدتِها في نفسِ المنزلِ منذُ خمسةٍ وثلاثين عامًا ولم تتركه أبدًا حيثُ لم يسبق لها الزواج، كما لم تتح لها أيُّ فرصةٍ للعملِ خارج البلادِ على الرغمِ من محاولاتِها المتعددة.

أعاد لها مرورُها أمام منزلِ صديقتِها الكثيرَ من الذكرياتِ الجميلةِ لهما معًا منذُ بدايةِ تعارفِهما عندما كانتا في الصفِّ الأول الإعدادي واستمرتا مقربتين حتى زواج "هناء"، والذي ترتب عليه انتقالُها من هذا الحيّ واستقالتها من وظيفتِها كمدرسةٍ للغةِ الإنجليزيةِ في نفسِ المدرسةِ التي تعملُ بها "وفاء" حاليًا.

تناولت "وفاء" طعامَ الغداء، وارتاحت قليلًا ثمَّ تجهزت للخروجِ وارتدت أفضلَ ما لديها من ثياب. وفي تمامِ السابعة نظرت من شرفةِ شقتِها فوجدت سيارةً فارهةً للغاية تقفُ أمام

البنايةِ التي تسكنُ فيها، فخمنت أنَّها سيارةُ "هناء" وبها السائق، ثمَّ بعد لحظات رن هاتفُها المحمول وإذا بالسائقِ يخبرُها أنَّه قد وصل ويقفُ أمام منزلِها منتظرًا نزولَها.

نزلت "وفاء" الأدوارَ الثلاثة التي تفصلُ شقتَها عن الأرضِ ببطءٍ شديدٍ حيثُ كانت ترتدي حذاءً بكعبٍ عالٍ، ولم تكن معتادةً على ارتداءِ هذا النوعِ من الأحذية. ركبت السيارةَ -بعد أن فتح لها السائقُ الباب- ثمَّ ركب السائقُ وانطلقت السيارةُ إلى حيثُ تسكنُ صديقتُها. استغرقت رحلتُهما من منزلِها إلى منزلِ "هناء" نحو ساعةٍ كاملة كانت خلالها تقرأُ أجزاءً من إحدى الرواياتِ باللغةِ الإنجليزية.

وفور وصولِ السيارةِ إلى بوابةِ المجمَّعِ السكنيّ توقفت "وفاء" عن القراءة، ثمَّ وضعت الروايةَ في حقيبتِها وأخذت تنظرُ منبهرةً إلى (الڤللِ) والقصورِ الموجودةِ بداخلِ المجمع، فقد كانت هذه أول مرةٍ تدخلُ فيها "وفاء" هذا المجمَّعَ بعد اكتمالِه، لأنَّها عندما زارت صديقتَها منذُ ثلاث سنواتٍ كانت أغلبُ المنازلِ لا تزال تحت الإنشاء، كما أنَّ أعمالَ التخطيطِ الداخليّ للمجمَّعِ والحدائق وأماكن الخدمات العامة لم تكن قد اكتملت بعد.

بعد عدَّةِ دقائقٍ وصلت السيارةُ إلى منزلِ "هناء" وأمام (الڤيلا) مباشرةً وقفت صديقتُها في انتظارِها، نزلت "وفاء" من السيارةِ -وهي بكاملِ أناقتِها- وسلَّمت على "هناء" سلامًا حارًا، سلامُ صديقتين لم تلتقيا منذُ زمن، ثمَّ رحبت "هناء" بضيفتِها ودعتها للدخول.

وبعد ساعةٍ كاملةٍ استغرقتها الصديقتان في تبادلِ السلاماتِ واستعادةِ بعض الذكرياتِ، والحديث عن بعضِ الأخبارِ السريعةِ عن كلٍّ منهما وكذلك بعد واجبِ الضيافة، دعت "هناء" صديقتَها إلى مشاهدةِ (الڤيلا) بعد التجديداتِ حيثُ أنَّها قامت بتجديدِ ديكوراتِها بالكاملِ منذُ شهرين، وبالفعل قامت الصديقتان بجولةٍ في مختلفِ أنحاءِ المنزلِ شملت كذلك الحديقتين الأمامية والخلفية وحمَّام السباحة.

حرصت "هناء" على أن تصطحبَ "وفاء" إلى كلِّ غرفِ (الڤيلا) وأن تريها كلَّ الديكورات والأثاثِ الجديد، وفي أثناءِ جولتِهما في الطابقِ العلويِّ أخذت "هناء" صديقتها إلى غرفةِ الثيابِ الخاصةِ بها، وهي غرفةٌ كبيرةٌ للغاية تبلغُ مساحتها نحو عشرةِ أمتارٍ طولًا في ثمانيةِ أمتارٍ عرضًا ومليئةٌ بخزائنِ الملابسِ المليئةِ بدورها

بأفخمِ أنواعِ الثياب، ثمَّ وصلتا إلى خزانةٍ خاصةٍ بالأحذية فتحتها "هناء" بشكلٍ عرضي ثمَّ قالت لـ"وفاء": هل تشاهدين هذه الأحذية؟ إنَّها من أرقى الماركاتِ العالمية، هل تشاهدين الحذاءَ الثاني في الصفِّ الأخير؟! يا لها من صدفة!! إنَّه مثلُ حذائِك تمامًا إلَّا أنَّه طبعًا الماركة الأصلية وليس التقليد!

في أثناءِ هذه الجولة لم تشعر "وفاء" بالراحة، فقد أحسَّت أنَّ صديقتَها تتعالى عليها وبالذات في موضوعِ حرصِها الشديدِ على ذكرِ تكلفة كلِّ قطعةِ ديكور وثمن كلِّ قطعةِ أثاثٍ وكلِّ قطعةِ ملابس، وكذلك البلد التي اشترت منها كلَّ تحفةٍ أو لوحةٍ لفنانٍ مشهور، انعكس عدمُ الراحةِ على إيماءاتِ وجهِ "وفاء" وصوتها وحركاتها فأحسَّت "هناء" أنَّ هناك خطبٌ ما، فسألت صديقتَها بشكلٍ مباشرٍ كما اعتادتا سابقًا: هل هناك خطبٌ ما؟! أحس أنَّ شيئًا ما ضايقكِ!

فأجابت "وفاء" بشكلٍ مباشرٍ كما اعتادت مع صديقتِها دائمًا: نعم لقد أحسستُ بالضيقِ من طريقةِ كلامِك عن (الڤيلا) ومحتوياتِها وديكوراتِها وتحفِها وملابسك وأحذيتك.

فقالت لها "هناء" متعجبة: ما الذي ضايقكِ في كلامي؟!

فأجابت "وفاء" بشيءٍ من الامتعاض: طريقتك الاستعراضية في وصفِ كلِّ شيءٍ وسعرِه وبلده!

فازداد تعجُّبُ "هناء"، ثم قالت لها: لقد اعتقدت أنَّ ذلك سوف يفرحكِ فمنذُ أكثر من عشرين عامًا وكلٌ منَّا كتابٌ مفتوحٌ بالنسبةِ للأخرى وكلٌ منَّا تفرحُ - من قلبِها - لما تحققُه الأخرى، هل تذكرين؟

صمتت "وفاء" ولم تعلق، فتابعت "هناء": لقد كان مجموعُك أعلى منّي في الثانويةِ العامة وفرحتُ لكِ كما أفرحُ لنفسِي، وكانت تقديراتُك في الكليةِ دائمًا أعلى منّي وكنتُ أسعدُ لذلك قدرَ سعادتِي لنفسي، حتى بعد أن عملنا في نفسِ المدرسةِ وحصلتِ على لقبِ المدرسةِ المثاليةِ لثلاثة أعوامٍ متتاليةٍ، كنتُ أنا أسعدَ النَّاسِ لما حققتِه أنتِ، أضيفي إلى ذلك سعادتي الغامرة بحصولك على دبلومةِ الدراساتِ العليا من كليةِ الآداب. فما الذي تغير؟ أنا أخبرتُكِ كلَّ شيءٍ عن المنزلِ لأنَّني اعتقدت أنَّ ذلك يسعدك. مرة أخرى، ما الذي تغير يا "وفاء"؟

أجابت "وفاء" بصوتٍ بدا معه أنَّها تداري انفعالاتِها: الذي تغير هو أنَّك لم تحققي شيئا يا "هناء"، لم تحققي أيَّ إنجازٍ أو نجاح،

بل لم تقومي بأيِّ مجهود، كلُّ ما في الأمرِ أنَّك تنفقين أموالَ زوجِك الثري!! أنتِ تحاولين -عن طريقِ أموال زوجك- شراءَ نجاحٍ لكِ، هناك فارقٌ كبيرٌ بين أن تكوني شيئًا ما وبين أن تشتري شيئًا ما.

فوجئت "هناء" من إجابةِ صديقتِها ونزلت عليها كالصاعقة وصمتت لبرهةٍ ثمَّ قالت في لهجةٍ بها كثيرٌ من الثقةِ وبعضُ التحدي: وما المشكلةُ في أنَّني أنفقُ نقودَ زوجي الثري؟ هل المشكلةُ أنَّه ثري؟ أم المشكلةُ أنَّه زوجي؟! نظرت إليها "وفاء" بتعجبٍ وضيق إلَّا أنَّ "هناء" أكملت: هل لديك مشكلةٌ في أنَّني تزوجتُ في حين أنَّك لم تتزوجي بعد؟ أم مشكلتُك الأزلية معي أنَّني أجملُ منكِ؟ أم لديكِ مشكلةٌ في أنَّني أحيا حياةَ الأثرياء؟ ألهذا انقطعت عنِّي السنواتِ الثلاثة الماضية؟ هل أردتي أن أكون دائمًا النسخةَ الباهتةَ منك؟

نظرت لها "وفاء" بحدةٍ ورمقتها بنظراتٍ حادةٍ واعتدلت في جلسِتها بحيثُ تبدو مواجهةً لها، ثمَّ قالت بصوتٍ مرتفع: المشكلةُ ليست في زواجِك ولا في ثراءِ زوجِك ولا في حياتِك الجديدة، مشكلتي معك هي محاولاتُك الدائمةُ أن تشعريني أنَّك أصبحتِ

أفضل منّي منذُ أن تزوجتِ، لهذا انقطعتُ عنك، وكان هذا القرارُ منّي بسببِ أنَّكِ تغيرتِ.

فقاطعتها "هناء" بحدةٍ متسائلة: أنا تغيرت؟!

فقالت لها "وفاء": نعم، لقد تغيرتِ كثيرًا، فأنتِ لا تتكلمين إلَّا عن (فيلتِك) وأثاثِك وسفرياتِك وحفلاتِك وملابسِك الجديدة ومجوهراتِك وتحفِك وسياراتِك ومصانعِ زوجِك وصداقاتِك الجديدة لأُناسٍ من عليةِ القومِ داخل وخارج البلاد، ألا تسمي هذا تغييرًا؟!

فأجابتها "هناء" بنبرةِ صوتٍ عاليةٍ، ولكن أخفض من تلك التي تحدثت بها "وفاء": نعم، أنا أتكلم عن كل ذلك وبالتفصيلِ لأنَّ هذه هي حياتي الآن! فإذا لم أتكلم عن كلِّ هذا فعن ماذا سأتكلمُ معك؟! أنا لم أتغير يا "وفاء" فقط حياتي هي التي تغيرت!

تعجبت "وفاء" من إجابةِ صديقتِها وحاولت في نفسِها أن تجيبَ عن سؤالِها، فلو لم تتكلم "هناء" عن حياتِها الجديدةِ فعن ماذا سوف تتكلم؟! سؤالٌ محير، ساد صمتٌ بينهما لدقيقتين أو ثلاثة، ثمَّ حاولت "هناء" أن تغيرَ الموضوعَ لتهدئَ من جوِّ التوترِ بينهما فأخذت تتحدثُ معها عن آخرِ روايةٍ قرأتها وأخذتا

تتناقشان بشأنِها عدَّةَ دقائق، لكن كل منهما كانت تتحدثُ بجزءٍ من تركيزِها والجزءُ الأكبرُ يحاولُ في صمتٍ أن يجيبَ لها عن عدَّةِ أسئلة: ما الذي تغير؟ لماذا لم نعد نستطيعُ التواصلَ مثلما اعتدنا قبل ذلك؟ لماذا هذه المشاعرُ السلبية المتبادلة؟

قالت "هناء" لنفسها: لعلَّ "وفاء" تشعرُ بالغيرةِ لما أصبح عليه حالي وما أضحت عليه حياتي، لعلَّها تستكثرُ في نفسِها عليَّ ما أصبحتُ أنا عليه، لعلَّها ترى نفسَها الأحقَّ بهذه الحياةِ مِنّي فقد كانت دائمًا هي الأكثر اجتهادًا وعملًا وتفوقًا وذكاءً.

وقالت "وفاء" لنفسِها: لعلَّ "هناء" تشعرُ بشيءٍ من الكبرِ والغرورِ بعد أن تغيرت حياتُها، لعلَّها تريدُ دائمًا أن تنقلَ إليَّ الإحساسَ بأنَّها أفضلُ مِنّي وأنَّها هي من نجحت في حياتِها وليس أنا، وأنَّها أخيرًا تمكنت من الحصولِ على كلِّ ما عجزتُ عن الحصولِ عليه على الرغمِ من تعبي واجتهادي.

أخذت كلٌّ منهما تتكلمُ في نفسِها وتسألُ نفسَها العديدَ من الأسئلةِ وتضع لها إجاباتٍ وتبني عليها استنتاجاتٍ، إلَّا أنَّ كلًا منهما توصلت في نفسِها إلى قناعةٍ واحدةٍ بأنَّ صداقتَهما - بشكلِها كما كانت في الماضي - لم يعد من الممكنِ لها أن تستمر، فقد

تغيرت الظروفُ ويبدو أنَّه قد تغيرت معها أيضًا النفوس، أو لعلَّ تغيرَ الظروف أظهر أو زاد بعضًا ممَّا كان كامنًا في النفوس، وربَّما كل ذلك معًا، ولكن في جميعِ الأحوال يبدو أنَّ الأفضلَ هو خطوتان أو ثلاث إلى الخلف.

بعد أن انتهى حوارُهما عن الروايةِ الإنجليزية، استأذنت "وفاء" في الانصراف، لم تلح عليها "هناء" في البقاءِ معًا لمزيدٍ من الوقت، تواعدتا على لقاءٍ ثان دون تحديدٍ لموعد، ثم استقلت "وفاء" السيارةَ بعد أن ودَّعت "هناء"، وطلبت "وفاء" من السائقِ أن يقومَ بإيصالِها إلى المنزل، وعندما اقتربت من منطقةِ سكنِها اختارت طريقًا لا يمرُّ بمنزلِ "هناء" السابق، وبعد أن وصلت إلى منزلِها وبدلت ثيابَها، جلست أمام التلفازِ تشاهدُ بدون تركيزٍ أحدَ البرامجِ في إحدى القنواتِ الفضائية، ثمَّ نظرت إلى هاتفِها وإذا به يقفُ في سجلِّ الأسماءِ عند اسم صديقتِها "هناء"، فابتسمت ابتسامةً خفيفةً وبشيءٍ من الحسرةِ... أغلقت الهاتف.

obeikan.com

"خطوات إلى الخلف"

في صباحِ أحدِ أيَّامِ ربيع عام (١٩٧٤)، انطلق "سامح" يركضُ ويلعبُ مع أولادِ عمومتِه في حديقةِ الحيوانِ بالجيزة، كان الجوُّ الصحوُّ والشمسُ الساطعةُ -دون شعاعٍ لافح- ونسماتُ الهواءِ الربيعيّ الهادئةُ مع مساحاتِ العشبِ الخضراءِ ووجودِ مختلفِ أنواعِ الحيواناتِ يشجعون الأطفالَ على الحركةِ واللهوِ والمرح.
وقتها كان "سامح" في الرابعةِ من عمرِه، ومثل كلِّ الأطفالِ في هذا العمر، كان كثيرَ الأسئلةِ وشديدَ الفضول، فجأة ترك "سامح" أولادَ عمومتِه -ممَّن هم في مثلِ سنِّه- واتجه إلى حيثُ تجلسُ الأمهات، مشى بهدوءٍ حتى وصل إليهن، نظر إلى والدتِه وبراءةُ الأطفالِ في عينيه ثمَّ سألها: ماما، هل صحيحٌ أنَّ زميلَك في العملِ يقولُ أنَّك جميلة؟

نظرت إليه والدتُه بغضبٍ شديدٍ ويكادُ الشرَرُ يتطايرُ من عينيها لما أصابها من إحراجٍ أمام قريباتِها، ثمَّ صفعته على وجهِه وبعدها قالت له: كيف تجرؤُ أن تقولَ هذا الكلام؟ وكيف تجرؤُ أن تسألَني هذا السؤال؟ وكيف تجرؤُ أن تتكلمَ أمام الكبارِ أصلًا؟

انصرف "سامح" باكيًا وانزوى حزينًا وحيدًا تحت إحدى الأشجار، لم يفهم سببًا لهذا الضربِ ولهذه الإهانة، كلُّ ما استوعبه عقلُه الصغيرُ وروحُه البريئةُ هو أنَّه سمع أحدَ أولادِ عمِّه يقولُ لابنةِ عمِّه الآخر أنَّها جميلة، وتذكَّر أنَّه سمع والدتَه تقولُ لإحدى صديقاتِها على الهاتفِ أنَّ زميلَها في العملِ قال لها أنَّها جميلة، وأراد فقط أن يسألَ ما الذي يقصدُه الولدُ عندما يقولُ للبنتِ أنَّها جميلة! كان هذا منتهى استيعابِه وأقصى درجاتِ تحليلِه. وبعد فترةٍ من البكاءِ ثمَّ الصمتِ واستيعابِ الصدمةِ وابتلاعِ إهانةِ الروحِ البريئةِ قبل ألمِ الجسدِ الصغير، قرَّر - دونما أن يدري - أن يأخذَ خطوةً إلى الخلفِ في علاقتِه مع والدتِه، فليس كلُّ شيءٍ يُقال وليس كلُّ استفسارٍ يُسأل وليس كلُّ خبرٍ يُحكى وليس كلُّ احساسٍ يُفصَحُ عنه، كما نما بداخلِه خوفٌ من والدتِه امتد ليصبح خوفًا من كلِّ الكبارِ عمومًا.

وتمرُّ الأعوامُ وتمضي، وفي صيفِ (١٩٧٧)، كان "سامح" يلعبُ مع أحدِ أصدقائِه الذى جاء مع والدتِه لزيارتِه في المنزِل، وأثناءَ لعبِهما معًا -ومثل أيَّ طفلين في نحوِ السابعةِ من عمرِهما- اندفع "سامح" وصديقُه باتجاهِ إحدى الطاولاتِ فوقعت بما عليها ممَّا أدى إلى انكسِار وتحطم الأكواب الموضوعة فوقها. نظر "سامح" وصديقُه إلى الأكوابِ المتكسِّرةِ بصمتٍ وخوف، هنا قامت والدةُ صديقِه باحتضانِ ابنها والاطمئنانِ عليه واعتذرت عمَّا حدث لوالدة "سامح"، وبعد أقلِّ من ثانية كانت والدةُ "سامح" تنهالُ على ابنِها بالشتائمِ ثمَّ صفعته على وجهِه، كلُّ ذلك أمام صديقِه ووالدتِه.

عندما شاهدت والدةُ صديقِه ما حدث اصطحبت ابنَها ثمَّ انصرفا، وابتلع عقلُ "سامح" الصغير مرارةَ الإهانةِ وألمَ الصفعةِ مزدوجًا، مرةً بسببِ الألمِ الماديِّ للصفعةِ ومرةً أخرى بسببِ إهانتِه أمام صديقِه، ممَّا أدى إلى إحساسِه بالنقصِ أمام صديقِه، ذلك الإحساس الذي بدأ يتنامى بعدها ليصبحَ تجاه أصدقائِه ومعارفِه بشكلٍ عام.

عند هذه اللحظة كبرت بذرةُ الخوفِ من والدتِه وبدأت تنمو معها بذرةُ كراهيةٍ وبغضٍ لأفعالِها، ولكن كل هذه المشاعر لم تكُن فقط تجاه والدتِه وإنَّما اتسع مداها لتصبح تجاه كلِّ الكبار أيضًا. كلُّ ذلك دفعه لاشعوريًّا إلى الابتعادِ عن والدتِه وعن الجميعِ خطوةً أخرى إلى الخلف.

ومرَّت الأعوام، وفي نهايةِ العامِ الدراسيِّ (١٩٧٩- ١٩٨٠)، ذهب "سامح" مع صديقٍ له إلى المدرسةِ لمعرفةِ النتيجة، فرح "سامح" كثيرًا لأنَّه حصل على درجاتٍ مرتفعةٍ وكان ترتيبُه الخامسَ في فصلِه. عاد سعيدًا إلى منزلِه، أخذ يلعبُ ويلهو فرحًا كأيِّ طفلٍ في العاشرة من عمرِه سعيدًا بما أنجزه، وبعد عدَّةِ ساعاتٍ عادت والدتُه من العمل، فانطلق يجري نحوها والفرحُ يشعُّ من عينيه ثمَّ أخبرها بالنتيجةِ والدرجاتِ التي حصل عليها في كلِّ مادةٍ والترتيبِ النهائيِّ الذي أحرزه على فصلِه، ففوجئ بصفعةٍ على وجهِه وسيلٍ منهمرٍ من الشتائمِ والاعتراضاتِ واللومِ والإتهامِ بالتقصيرِ وعدم تحملِ المسئولية.

لم يستوعب ما حدث بشكلٍ كامل، بدأ يتسرَّبُ إلى نفسِه كُرهٌ لذاتِه، لم يفهم لماذا كلُّ هذه الاتهاماتِ وهذا الغضبِ لمجردِ أنَّه

حصل على الترتيبِ الخامس في فصلٍ به ما يزيد عن ثلاثين تلميذًا وبفارقِ خمس درجاتٍ فقط في المجموعِ الكليّ عن الطالبِ الحاصلِ على المركزِ الأول. لم يفهم أين التقصيرُ ولماذا اللومُ؟! وهو يبذلُ قدرَ استطاعتِه في الدراسةِ وبمنتهى الانتظامِ والالتزام. لكنَّه في النهايةِ قرَّر بطريقةٍ امتزج فيها الشعورُ باللَّاشعورِ لديه أن يأخذَ خطوةً أخرى إلى الخلفِ في علاقتِه مع والدتِه، مزيدًا من المسافةِ ربمَّا حتى لا تؤلم صفعاتُها روحَه كما تؤلمُه وتؤلمُها الآن، فالألمُ عندما يتسببُ فيه الشخصُ البعيدُ يكون أكثرَ احتمالًا منه عندما يتسببُ فيه المقربون.

ولكن هنا كان خليطُ المشاعرِ يتزايد، خوفٌ كبيرٌ من والدتِه يزدادُ ويكبرُ مع الأيام، كراهية لأفعالِها تزدادُ مع الأيامِ أيضًا وإن كانت لا زالت أصغرَ من الخوف، كرهٌ لذاتِه يزدادُ باضطرادٍ بشكلٍ أكبر من زيادةِ كلِّ المشاعرِ السلبيةِ السابقة، وكلُّ ذلك يؤدي إلى أنَّ الخطوةَ التي تؤخذُ إلى الخلفِ تكون ليس فقط بعيدًا عن والدتِه ولكن أيضًا بعيدًا عن الدنيا بما ومن فيها.

وتمرُّ السنواتُ وفي صيفِ عام (١٩٨٣) ذهب "سامح" إلى النَّادي واشترك في مدرسةِ التنس، كان يذهبُ للتمرينِ لمدةِ

ساعتين يوميًّا مع مجموعةٍ من أصدقائِه، فقد أعجب للغايةِ بلعبةِ التنس، ووجد أنَّها فرصةٌ جيدةٌ ليقضيَ جزءًا من وقتِ فراغِه خلال الإجازةِ الصيفية في ممارسة هذه الرياضة، كما كان معه مجموعةٌ من الأصدقاءِ الملتزمين ذوي الأخلاقِ العاليةِ يقومون بتشجيعِه، كما وجدها فرصةً أيضًا للابتعادِ عن بعضِ أصدقاءِ السوءِ الذين طالما حاولوا فرضَ أنفسِهم عليه وعلى حياتِه.

وبعد نحو أسبوعين من اشتراكِه في مدرسةِ التنس، فوجئ بالمدربِ يُبلِغُه أنَّ والدتَه جاءت وقامت بإلغاءِ اشتراكِه، وبناءً عليه فهو لن يتمكنَ من الاشتراكِ في التمارين منذ الآن فصاعدًا.
وقع عليه الخبرُ كالصاعقةِ ولم يفهم له سببًا، فهي لم تكلف نفسَها حتى عناءَ إبلاغِه هو مباشرةً بالخبر، عاد إلى المنزلِ مذهولًا ثمَّ سألها: لماذا ألغيتِ اشتراكي في مدرسةِ التنس؟!
فقالت له ببرود: أريدك أن تستغلَّ فترةَ الإجازةِ الصيفيةِ في مزيدٍ من الدراسةِ والتحصيلِ وليس اللعب !!
فحاول الاعتراضَ قائلًا: أنَّه يذاكرُ وبكدٍ طيلةَ فترةِ العامِ الدراسي، وأنَّه معجبٌ برياضةِ التنس ويريد التدربَ عليها وممارستها خلال فترةِ الإجازةِ الصيفية.

وفجأةً وجد صفعةً أخرى على وجهِه، ثمَّ قالت له بعدها: لا يهمُّ ما تراه أنت، المهمُّ هو ما أراه أنا، فأنا من يحددُ لك ما تفعله! فصمت وقال في نفسِه بانكسارٍ وقرف: خطوةٌ أخرى إلى الخلف! خطوةٌ أخرى لمزيدٍ من الابتعادِ عن الأم والألمِ والحياةِ والناس.

ازداد خوفُه من والدتِه وكَبُر، وازدادت بشكلٍ أكبر كراهيتُه لأفعالِها وبلغت حدًا تكادُ تلامسُ فيه خوفَه منها، وبجانبِ كلِّ ذلك سيطر عليه إحساسٌ لا يزال يتنامى باضطرادٍ وبعمقٍ ويزدادُ التصاقًا به من الكراهيةِ لنفسِه، وإن كان لم يبلغ في الحجمِ مبلغَ الإحساسين السابقين حتى الآن.

انعكس كلُّ ذلك في مرآةِ تعاملِه مع الدنيا وازدادت مع كلِّ ذلك خطواتُه التي يخطوها لمزيدٍ من الابتعادِ عنها نتيجة للخوفِ من التعاملِ معها.

وتمضي السنوات، وفي نهاية صيف عام (١٩٨٧)، وقبل بدءِ الدراسةِ بأيامٍ قليلة، كان موعدُ ملءِ الاستماراتِ الخاصةِ باختيارِ التخصُّصاتِ في آخرِ سنواتِ المرحلةِ الثانوية، كانت الرغبةُ المفضلةُ لـ"سامح" هي القسمُ الأدبي، فقد كان يرى نفسَه أقرب لمجالاتِ الفنِّ والسينما والأدب، إلَّا أنَّ والدتَه أصرت على أن

يلتحقَ بالقسمِ العلميّ وتحديدا شعبة الرياضيات، لكي يدخلَ بعد ذلك كليةَ الهندسة ليعمل معها ومع والدِه في شركةِ المقاولاتِ الكبيرةِ الخاصةِ بالعائلة.

حاول "سامح" كثيرًا إقناعها بأنَّ المجالاتِ العلميةَ عمومًا ومجالاتِ الرياضياتِ والهندسةِ خصوصًا ليست هي مجالاتِ دراستِه أو عملِه المفضلة، وهي بعيدةٌ كلَّ البعدِ عن أحلامِه وطموحاتِه، وكالعادةِ لم يجد أُذنًا صاغيةً ولا عقلًا متفهمًا ولا نقاشًا ذا معنى، كان إصرارُها كبيرًا وقرارُها نهائيًّا وتهديداتُها لا حدَّ لها. أدرك "سامح" أنَّه لا بديلَ عن تنفيذِ ما تطلبُه منه والدتُه، وأنَّه ليس أمامَه خيارٌ آخرٌ إلَّا دراسة ما لا يحب وإلَّا فسينتهي به الأمرُ إلى ما لا يحب.

أمسك باستمارةِ الرغباتِ وكتب فيها بمنتهى الألمِ والإذلال: علمي رياضيات، وحفر في عقلِه وقلبه ولمرةٍ أخرى وبشكلٍ حادٍ وعميق: خطوةً إلى الخلفِ في علاقتِه مع والدتِه. عند هذه اللحظة تحديدًا تجاوزت كراهيتُه لأفعالِ والدتِه خوفَه منها، وعند هذه النقطة بلغت كراهيتُه لنفسِه حدًا لم يعد يحتمل. ومع كلِّ ذلك بدأ عقلُه يلحُّ عليه في ضرورةِ البعدِ عن الناسِ والانزواءِ وحيدًا

وتجنُّبِ الاحتكاكِ بالدنيا وكالعادةِ... خطوةٌ أخرى إلى الخلفِ ومزيدٌ من الابتعادِ عن الحياةِ والناس.

مرت الأيامُ واستمرت علاقتُه بوالدتِه تمضي من فاترٍ إلى أكثر فتورًا ومن شكلٍ تقليدي إلى شكلٍ أكثر تقليدية، انسحب بهدوء، خطوةً بخطوة، لم يصبح جزءًا من حياتِها كما أخرجها من حياتِه أيضًا بصمتٍ وتدرجٍ وهدوء، ولأنَّ التغييرَ تمَّ بالتدريج فلم يشعر به أحدٌ وإن كان قد خطط له بحرصٍ ونفذ خططَه دون ضجةٍ أو إعلان.

في عام (١٩٩٥)، عاد "سامح" من عملِه في شركةِ المقاولاتِ المملوكةِ لعائلتِه، ثمَّ أخبر والدتَه أنَّه يريدُ أن يفاتحَها في أمرٍ هام، وبعد تناولِ طعامِ العشاء أخبرها أنَّه معجبٌ بزميلةٍ له تعملُ في الشركةِ وأنَّهما مرتبطان معًا بقصةِ حبٍ منذُ عدَّةِ أشهر وهو يفكرُ بشكلٍ جديّ في الإرتباطِ بها. ردَّت عليه والدتُه ببرودٍ واعتراض: وكيف يصلُ بك الأمرُ أن تفكرَ في الارتباطِ بموظفةٍ تعملُ عندنا؟ وكيف تسمحُ لنفسِك بأن تحبَّ وترتبطَ دون استئذان؟ عمومًا أنا أرى أنَّ أفضلَ عروسةٍ لك هي ابنةُ خالِك، وإذا كنت فعلًا تفكرُ في الارتباطِ فأنا سأخطبُها لك من خالِك غدًا!! صمت "سامح" تمامًا ولم يغضب أو يناقش ثمَّ استأذن في الانصراف.

تزاحمت في عقلِه كلُّ المشاعرِ السلبيةِ الممكنةِ من كراهيتِه المتنامية لأفعالِ والدتِه إلى خوفِه منها المتجذّرِ في أعماقِ تكوينِه منذُ طفولتِه إلى كراهيتِه لنفسِه والتي ازدادت بسببِ عجزِه عن اتخاذِ قرارٍ واحدٍ فقط في حياتِه، حتى لو كان هذا القرارُ هو اختيارَه لشريكةِ حياته.

أدرك "سامح" أنَّ فترة ربع قرنٍ من إلغاءِ شخصيتِه ومعاملتِه كنكرة أو في أفضلِ تقديرٍ كقطعةِ أثاثٍ في المنزلِ تُمثّل أقصى ما يستطيعُ تحمُّلَه ولم يعد يستطيع أن يتحملَ أكثرَ من ذلك، كما لم يعد هناك مجالٌ لأيّ خطوةٍ أخرى يخطوها للخلفِ سواءً مع والدتِه أو مع الدنيا فقد خطا بالفعلِ كلَّ الخطواتِ الممكنةِ حتى أصبح ظهرُه للحائط ! ولم يعد ممكنًا أن يستمرَ في أن يحيا حياةً ليست حياتَه وأن يقومَ غيرُه باتخاذِ قراراتِه نيابةً عنه، وقد سئِم هذا الوضعَ بما فيه من إذلالٍ واستسلامٍ وقرَّر أن يحاولَ تغييرَه تمامًا.

في صباحِ أحدِ أيَّامِ ربيع عام (١٩٩٦)، انطلق "سامح" يمارسُ رياضتَه اليوميةَ في الركضِ حولَ حديقةِ "الهايد بارك" في "لندن"، وهي رياضةٌ يمارسُها بانتظامٍ مع مجموعةٍ من معارفه

الجدد صباحَ كل يومٍ منذُ انتقل للعيشِ في "لندن". كان الجوُّ الباردُ نسبيًّا وبعضُ أشعةِ الشمسِ التي تتسربُ بصعوبةٍ خلفَ ضبابِ "لندن" الكثيفِ ونسماتُ الهواءِ الهادئةُ تشجّعُه على الركضِ بحيويةٍ ونشاطٍ. وبعد أن أنهى رياضتَه، عاد إلى بيتِه وبدَّل ثيابَه واتجه إلى عملِه.

كان "سامح" يمرُّ بعينيه على كلِّ شيءٍ حوله سواءً في أثناءِ عملِه أو ركضِه أو دراستِه، كان يحاولُ أن يعرفَ كلَّ شيءٍ عن كلِّ شيء، استعاد بعضًا من فضولِه ورغبتِه في المعرفةِ وحاول جاهدًا مغالبةَ ما بداخلِه من خوفٍ من الدنيا وترددٍ في اتخاذِ القرار، كما حاول جاهدًا السيطرةَ على مشاعرِ كراهيتِه لنفسِه. وبعد أن أنهى عملَه في تمامِ الخامسة، اتَّجه لحضورِ محاضراتِه الليلية، فقد سجل نفسَه للدراسةِ في أحدِ مراكزِ التعليمِ المستمرّ في إحدى جامعاتِ "لندن" لدراسةِ السينما، وكان يذهبُ لحضورِ المحاضراتِ مع زوجتِه حيثُ ارتبط بالفتاةِ التي يحبها وكانا يذهبان معًا لحضورِ المحاضراتِ دونما قلقٍ على النتيجةِ أو الترتيبِ أو التقدير.

ولكن يبدو أنَّ ما فعلته به التربيةُ في سنواتِ الطفولةِ والمراهقةِ لا يزال كامنًا تحت الجلد، حيثُ أنَّه مع مرورِ الوقتِ وجد أنَّه عاجزٌ تمامًا عن اتخاذِ أي قرارٍ أو تحمُّلِ مسئولية أيِّ فعل. أدرك أنَّ محاولتَه الكبيرةَ للتغييرِ والابتعادِ وفعلِ ما يحب لا يمكن أن تثمرَ مع كلِّ ما حدث لروحِه من تدميرٍ ولنفسِه من تحطيمٍ ولشخصيتِه من إلغاء ولِعقله من تعطيل.

فجأةً، وجد نفسَه مطالبًا أمام نفسِه بأن يقررَ ما يريد أن يفعلَه ويصارع الدنيا من أجلِ تحقيقِه، وبالطبع لم يتمكن من فعلِ ذلك مع شخصيته غير الموجودة وروحه المدمرة ونفسه المحطمة وعقله المقولب المعطل، فكيف يصارعُ الدنيا بكلِّ جبروتِها وهو خاوٍ تمامًا من الداخل؟! كيف يعطي حبًّا لزوجتِه وهو لم يعرفه ولم يتذوق طعمَه؟ كيف يقرَّرُ وهو يومًا لم يختبر قدرتَه على اتخاذِ القرار؟ كيف يتعاملُ مع الناسِ ويبني صداقاتٍ وهو خائفٌ منهم ويحسُّ بالنقصِ تجاههم؟ كيف ينجحُ في مجالِ عملٍ لم يختره؟ كيف يختارُ مجالَ دراسةٍ أو عملٍ جديدٍ وهو أصلًا لم يتعود كيفيةَ الاختيارِ وتحملَ مسئوليةِ الاختيار؟

في مساءِ أحدِ أيامِ صيفِ عام (١٩٩٩)، وبعد أن أنهى "سامح" عملَه في إحدى شركاتِ المقاولاتِ الصغيرةِ في "القاهرة"، عاد إلى منزله ثمَّ قام بنفسِه بتحضيرِ طعامِ الغداءِ، فهو يعيشُ وحيدًا في شقةٍ متواضعةٍ في أحدِ الأحياءِ الشعبيةِ بعد انفصالِه عن زوجتِه. وبعد تناولِه طعام الغداءِ بساعةٍ تقريبًا، اتجه إلى أحدِ المقاهي القريبةِ من منزلِه ليجلسَ وحيدًا يدخنُ الشيشةَ لتضييعِ الوقت، حيثُ لم يكن لديه شيءٌ يفعله أو أصدقاءٌ يتواجدُ معهم. وأثناءَ جلوسِه رن هاتفُه المحمولُ فإذا بها والدته، لم يفكر في الردّ على المكالمةِ حتى في حدودِ المجاملاتِ العادية، نظر إلى هاتفه المحمولِ ثمَّ وضعه أمامَه على الطاولةِ، وبعدها عاد لحياته... أو بالأحرى لما بقي من حياتِه المحطمةِ، بعد أن أخذ في حياتِه كلَّ الخطواتِ الممكنة... إلى الخلف.

obeikan.com

"الوداع"

خرج "حلمي" من عيادةِ الطبيبِ بشعورٍ غريب، ليس حزينًا وبالتأكيدِ ليس فرِحًا، فقد اعتاد الأخبارَ السيئةَ بحيثُ أصبحت لا تكادُ تؤثرُ عليه واعتاد الحزنَ بحيثُ أصبح جزءًا من شخصيَّتِه. بعد عدَّةِ أسابيعٍ من الكشوفاتِ والفحوصاتِ والتحاليلِ أخبره الطبيبُ بأنَّ أيَّامَه في الدُّنيا معدودةٌ وأنَّ ما تبقَّى من عمرِه لن يتجاوزَ السِّتةَ أشهر بحال من الأحوال.

خرج وعلى وجهِه بعضُ ملامحِ الاضطرابِ ولكنَّه اضطرابٌ لا يتناسبُ مع حجمِ الخبر، مجرَّدُ اضطرابٍ عاديٍّ وكأنَّه وصل إلى عملِه متأخرًا أو وجد خدشًا سخيفًا إضافيا على سيارتِه المتهالكةِ. اتَّجه من عيادةِ الطبيبِ -سيرًا على الأقدامِ في شوارعِ مصر الجديدة- إلى إحدى الكافيهاتِ الشهيرةِ لكيّ يشربَ فنجانًا من

obeikan.com

القهوةِ. وبالفعلِ وصل إلى الكافيه وشرب قهوتَه وأرسل بضعةَ رسائلٍ -غيرِ ذاتِ مغزى- من هاتفِه المحمولِ وجلس دونَ تفكير. حاول أن يبحثَ عن إجاباتٍ لبضعةِ أسئلةٍ سخيفةٍ: ما أولُ شيءٍ يريدُ فعلَه الآن؟ من أولُ شخصٍ يريدُ إخبارَه؟ ما الفيلم الذي يريدُ مشاهدتَه؟! ... إلخ. لم يتبادر إلى ذهنِه سؤالٌ واحدٌ ذو مغزى عميق، مجردُ أسئلةٍ سطحيةٍ تافهةٍ وإجاباتها لا تعكسُ أيَّ شيءٍ ذي قيمة... تمامًا كحياتِه!

نظر حولَه، لم يشاهد من الناسِ سوى وجوههم وملابسهم، دائمًا ما افتقد النظرةَ العميقةَ للأشخاصِ وللحياةِ فلماذا يتوقعُ أن يحظى بها الآن؟ نظرَ إلى المكانِ فلم يشاهد إلا ديكوراتٍ وألوان، ثمَّ جال ببصرِه عبر الشارعِ المطلِ على الكافيه فلم يرى إلَّا سياراتٍ وأضواء ولم يسمع إلَّا ضجيجًا، فقرَّر - كالعادةِ - ممارسةَ الهوايةِ الوحيدةِ التي يجيدُها: أحلام اليقظةِ!

أخذ "حلمي" يبني داخلَ أسوارِ عقلِه عالمًا خياليًا ويختلقُ قصصًا وهميةً يكونُ فيها هو البطل والمحركَ الأولَ والأخيرَ للأحداثِ، عالمًا يكونُ هو محورَه ويكونُ هو من يشكلُه، حياةً يختلِقُها هو ويضعُ فيها ولها -وحده- المحدداتِ والمعاييرَ وقواعدَ

الخطأ والصوابِ. استمر يبني الأحلامَ قصرًا وراءَ قصرٍ، ومغامرةً بعد مغامرةٍ، وإنجازًا يليه إنجازٌ، وانتصارًا على التحدياتِ يعقبُه انتصارٌ آخر، وهكذا لعدَّةِ ساعاتٍ متتاليةٍ، كلُّ ذلك داخلَ حدودِ عقلِه ولا يتخطَّى أسوارَ حلمِه.

وبعد ذلكَ اتَّجه إلى منزلِه المتواضعِ، الذي يقعُ داخلَ أحدِ الأحياءِ الفقيرةِ حيثُ يعيشُ وحيدًا دونَ زوجةٍ أو أولادٍ، ثمَّ نامَ نومًا عميقًا.

استيقظ متأخرًا ساعةً كاملةً عن ميعادِه المعتادِ، ولكن - وعلى عكسِ العادةِ - لم يسبِّب له هذا التأخيرُ أيَّ توترٍ حيثُ استمر في أداءِ مهامِه الصباحيةِ بنفسِ الهدوءِ والوتيرةِ المعتادةِ، ووصَل إلى عملِه - شبهِ الحكوميّ - متأخرًا ساعةً كاملة. كان صامتًا لا يتكلمُ، سأله مديرُه عن سببِ التأخيرِ فأجاب بهدوءٍ واقتضاب: ظروفٌ خاصةٌ، ثمَّ اتَّجه إلى مكتبِه في هدوءٍ وصمت.

ظلَّ صامتًا ساكنًا على مكتبِه المتهالكِ، حاول أن يفكرَ فلم يستطِع عقلُه العملَ، حاول أن يصلِّي فغلبَه الكسلُ، حاول أن يكلِّم أحدَ أصدقائِه أو زملائِه فانتصر عليه الصمتُ، حاول أن يعملَ فرفضت حواسُّه، حاول أن يقرأَ شيئًا فهرب منه النَّص،

فكَّر أن يغادرَ مبكرًا، فلم يتحمَّس للفكرةِ لعدمِ وجودِ ما يفعلُه إذا غادر، فاستسلم للصمتِ والسكونِ.

وبعد انتهاءِ ساعاتِ العملِ اتَّجه إلى منزلِه، واستمرت معه حالةُ الصمتِ والسكون، فأطفأ الأنوارَ وأغلق هاتفَه المحمولَ واتَّجه تدريجيًّا بعقلِه ووجدانِه إلى بناءِ حلمِ يقظةٍ جديد، وهنا فقط بدأ عقلُه يعاودُ العملَ وبدأت مشاعرُه تعاودُ التحرُّك، وقرر أن يكونَ حلمُ اليقظةِ لهذا اليومِ مميزًا... ولمَ لا؟ فقد اقترب وقتُ الرَّحيلِ ومن حقِّه أن يحظَ - منذ الآن - بأحلامِ يقظةٍ مميزة!!

عاد بذاكرتِه أربعينَ عامًا إلى الوراءِ، إلى فترةِ الطفولةِ حيثُ كان عمرُه يبلغُ تقريبًا عشر سنوات، تذكَّر أحلامَه في ذلك الوقت، فقد كانت تلكَ الفترة من عمرِه هي بداية أحلامِ اليقظةِ التى كان يهربُ عن طريقِها من حياتِه ومن واقعِه، حيثُ كان هو وواقعُه يرفضُ كلٌّ منهما الآخرَ ويرفضُ تقبُّلَه!

كان يريدُ أن يكونَ طبيبًا مشهورًا وجرَّاحًا عالميًّا، فقرَّر أن يكونَ هذا هو حلم اليومِ... نفس حلمه القديم... نفس حلم طفولتِه وطموحِ مراهقتِه الذي فشل في تحقيقِه. فتخيَّل نفسَه طبيبًا مشهورًا وجرَّاحًا عالميًّا مطلوبًا في أعرقِ وأفضلِ المراكزِ الطبيَّةِ

حـول العـالمِ، وضـيفًا دائمًـا في البرامجِ التليفزيونيـةِ الطبيَّـةِ الشهيرةِ والمميزة، تخيَّل نفسَه حاصلًا على الدكتوراه في الطبِ من كليفلانـد بالولايـاتِ المتحـدةِ، تخيَّـل أنَّ أبحاثَـه الطبيَّـةَ تُنشـرُ في أعظمِ الـدوريَّاتِ العلميَّـةِ لأعـرقِ جامعـاتِ العـالم، تخيَّـل نفسَـه أسـتاذًا زائـرًا في كبرى جامعـاتِ الولايـاتِ المتحـدةِ وأوروبـا، ثـمَّ مرشحًا لجـائزةِ "نوبل" في الطبِ عـن أبحاثِه ودراسـاتِه ثـمَّ تخيَّل نفسَه فائزًا بالجائزةِ ومحلَّ اهتمامٍ وتقديرٍ من كلِّ وسـائلِ الإعلامِ العالميةِ.

ولكنَّه لم يكتفِ بهذا، إنَّما قرَّر أن يطوِّرَ حلمَه ليشملَ مغالبتَه وانتصارَه على تحدياتِ شبابِه ورجولتِه. فقد تخيَّل نفسَه متزوجًا مـن الفتـاةِ التي أحبَّهـا عنـدما كـان لا يـزال طالبًـا في الجامعـةِ ورفضته عائلتُها للفوارقِ الإجتماعيةِ. وتخيَّل نفسَه بطلًا رياضيًّا أوليمبيًّا في الرياضـةِ الوحيـدةِ التي حـاول ممارسـتَها وفشـل عـدَّةَ مراتٍ نتيجـةَ ضـعفِ بنيانِه وبـطءِ ردودِ أفعالِـه. ثـمَّ تخيَّـل نفسَـه يقـودُ السَّـيارةَ الفارهـةَ التي طالمَا حلم بامتلاكِها ولكنَّه فشـل في شـرائِها بسـببِ ظروفِه المادية. ثمَّ تخيَّل نفسَـه سـائحًا ثريًّا يجـوبُ العالمَ ويسـافرُ إلى كلِّ البلادِ التي طالمَا رآها في الفضائياتِ أو سمع

عنها من معارفه أو قرأ عنها في الصحفِ والمجلاتِ ولكنَّه لم يتمكن من السفرِ إليها قط. كما تخيَّل نفسَه صديقًا مقربًا من أهمِّ وأشهرِ الشخصياتِ السياسيةِ والفنيةِ والثقافيةِ والعلمية، وضيفًا دائمًا على حفلاتِ صفوةِ المجتمعِ وأثريائِه، واستمر يحلمُ ويحلمُ ويحلم... وفجأةً انقطع الحلمُ وساد في ذهنِه صمتٌ رهيبٌ وظلامٌ دامس، وتوقَّف عقلُه عن الحلمِ وسكنت مشاعرُه وأحاسيسُه، حاول أن يفهمَ ما الذي حدث ولكنَّه لم يصل إلى إجابة.

بعد سبعةِ أيام، وبحضورِ الشرطةِ وبعضِ الجيران، تمَّ كسرُ بابِ شقَّتِه حيثُ اشتكى الجيرانُ من انبعاثِ رائحةٍ كريهةٍ من الشقة، وفور دخولِهم وجدوه ملقى على الأريكةِ ناظرًا بعينيه إلى السماءِ وساكنًا لا يتحرك. أدرك الجميعُ أنَّه قد فارق الحياة، وكان أحدُ الجيرانِ طبيبًا فاتَّجه إليه على الفورِ ليفحصَه، ثمَّ قال للموجودين: من الواضحِ أنَّه قد مات منذُ سبعةِ أو ثمانيةِ أيامٍ تقريبًا، فسأله أحدُ الموجودين: هل مات وهو نائم؟ فردَّ عليه الطبيبُ: الله أعلم.

نظر "حلمي" إلى نفسِه وإلى شقتِه وإلى الموجودين فيها، كان ينظرُ ويراقبُ كأنَّه من وراءِ سورٍ زجاجيّ، كان يرى ويسمعُ الموجودين ولكنَّه لا يستطيعُ التواصلَ معهم، هنَا فقط أدرك أنَّه قد فارق هذه الدنيا، وأنَّه لم يأخذ معه شيئًا حتى أحلامَه، لم يترك وراءَه بصمةً أو أثرًا أو عملًا أو تأثيرًا، خرج من الدنيا – تمامًا - كما دخل إليها، كما أدرك أنَّه لن يفتقدَه أحدٌ ولن يحزنَ لغيابِه فردٌ، ولن يُشكِّلَ انسحابُه خسارةً لعملٍ أو انتقاصًا لفعلٍ، فقد كان يعيشُ في هذه الدنيا زائدًا عليها، بل لم يكن يعيشُ فيها أصلًا، فقد كان موجودًا ولكن غيرَ متواجدٍ، كان يتنفسُ ولكن لا يحيا، كان يتحركُ ولكن لا يؤثر.

هُنَا أدرك أنَّه قد فارق هذه الدنيا أصلًا منذُ أربعينَ عامًا، وإن كانت شهادةُ وفاتِه ستتمُ كتابتُها... بتاريخِ الأسبوعِ الماضي فقط!!

obeikan.com

"صداع... ونظارتان!!"

استيقظ في تمامِ السابعةِ صباحًا -كعادتِه في السنواتِ الأخيرة- على صوتِ المُنَبِّه، دخل إلى الحمام، حلق ذقنَه، أخذ دشًّا سريعًا، ثمَّ تناول إفطارًا سريعًا - كعادتِه أيضًا -، ثمَّ اتجه إلى عملِه.

كان "أحمد" يعملُ أستاذًا جامعيًّا وتخصصُه هو التسويقُ وكذلك علوم الاتصالِ الجماهيريّ والإعلاميّ، وله العديدُ من الدراساتِ والكتبِ والأبحاثِ في شتَّى مجالاتِ التسويقِ والإعلانِ وتخطيطِ الحملاتِ الإعلانيةِ والإعلاميةِ وكيفيةِ الاتصالِ بالجماهيرِ والتأثيرِ عليها، وكذلك في بحوثِ السوقِ ودراساتِ احتياجاتِ المستهلكين.

كان اليومُ هو الأحد وكان عنوانُ المحاضرةِ التي سيلقيها على طلبةِ السنةِ الثالثةِ في كليةِ التجارة هو"أساليبُ الاتصالِ الإعلاني"، وصل إلى الجامعة، ركن سيارتَه، أخذ حقيبتَه، ثمَّ... وضع نظارتَه المخصصةَ للفترةِ الصباحية!!

دخل إلى قاعةِ المحاضراتِ - كعادتِه - في تمامِ الثامنةِ وعشر دقائق وبدأ المحاضرة. أخذ يشرحُ للطلبة كيف أنَّ الرسالةَ الإعلانيةَ يجبُ أن تكون متكاملةً ومتعددةَ الجوانبِ وأن يكون بها جانبٌ مرئيٌّ وآخرٌ مسموعٌ وثالثٌ مقروءٌ وهكذا، وأنَّه كلما كانت الرسالةُ الإعلانيةُ متكاملةً ومتعددةَ الجوانبِ وبها أكثر من وسيلةِ لإيصالِ المعلومة كلما كان ذلك أفضل وأكثر فاعليةً في إيصالِ المضمون. واستمر يشرحُ كيف أنَّ الاعتمادَ على الجانبِ السمعيّ وحده يعتبرُ ضعيفًا وغير كافٍ، لذلك فإنَّ إعلاناتِ المذياع (الراديو) أرخصُ كثيرًا من إعلاناتِ التلفاز (التليفزيون) بشكلٍ عام. وعند هذه النقطة طلب منه بعضُ الطلبةِ أن يضربَ مثالًا على ذلك، فصمت قليلًا... ثمَّ قال لهم: سنجري معًا تجربةً عمليةً تُوضحُ لنا جميعًا هذا المعنى.

اختار من بين الحاضرين ستةَ متطوعين بشكلٍ عشوائيّ، ثمَّ أعطى أحدَهم ورقةً بيضاء وطلب منه أن يكتبَ ثلاثة أسطرٍ عن أيّ موضوعٍ من موضوعاتِ مادةِ التسويق، وبالفعل قام الطالبُ بكتابةِ هذه السطور الثلاثة، ثمَّ طلب "أحمد" من الطالبِ أن يحفظَ هذه السطور الثلاثة بكلماتِها الست وثلاثين وأعطاه لذلك مهلةَ خمس دقائق كاملة.

وبعد انقضاءِ الدقائق الخمس، أخذ "أحمد" الورقةَ من الطالبِ ثمَّ طلب منه أن يخرجَ خارج قاعةِ المحاضراتِ ومعه طالبٌ آخر من المتطوعين وأعطاهما مهلةَ ثلاث دقائق ليقوم الطالبُ الأول بتحفيظِ الطالب الثاني محتوياتِ الورقة ولكن بشرطٍ واحد وهو: بدون كتابة، أي أنَّ عمليةَ انتقالِ المحتوى ستتمُّ بشكلٍ سماعيّ فقط لا غير وبدون كتابةٍ أو تدوينٍ أو تسجيلٍ من أيّ نوع.

وبعد انتهاءِ الدقائق الثلاث الأولى عاد الطالبُ الأول إلى قاعةِ المحاضراتِ ثمَّ حل محلَّه طالبٌ ثالثٌ على أساسِ أن يقومَ الطالبُ الثاني بتحفيظِ الطالب الثالث محتوى الورقةِ في فترةٍ لا تتجاوز ثلاث دقائق أيضًا... وهكذا حتى أتى الدورُ على الطالبين الخامس والسادس، حيث قام الطالبُ الخامس بتحفيظِ الطالب

السادس الأسطر الثلاثة، وبعد انتهاءِ الدقائق الثلاث عاد الطالبُ الخامس إلى قاعةِ المحاضراتِ في حين بقي الطالبُ السادس وحيدًا في الخارجِ لمدَّةِ ثلاث دقائق أخرى، ثمَّ دخل بعدها إلى القاعة. وعند دخولِه إلى القاعةِ أعطى "أحمد" الطالبَ السادس ورقةً بيضاء وطلب منه أن يكتبَ الأسطر الثلاثة كما يتذكرها وكما وصلت إليه.

ثمَّ أخذ "أحمد" الورقةَ الأصليةَ وقارنها بالورقةِ النهائيةِ ليكتشف الجميعُ أنَّ عددَ الكلماتِ في الورقتين مختلف، حيثُ احتوت الورقةُ الأصليةُ على ستٍ وثلاثين كلمة، في حين احتوت الورقةُ النهائيةُ على ثلاثٍ وثلاثين كلمة، كما أنَّ نسبةَ التطابقِ بين كلماتِ الورقتين لم تتجاوز السبعين في المائة.

وفي نهايةِ التجربةِ العملية قال لهم "أحمد": هذه تجربةٌ عمليةٌ أُجريَت لكم ونُفذت بمشاركتِكم وتمَّت تحت سمعِكم وبصرِكم، وأثبتت لكم بالدليلِ العمليّ القاطعِ أنَّ الاعتمادَ على السمعِ والذاكرةِ فقط غيرُ كافٍ لنقلِ وتوصيلِ المعلومة، حتى لو كانت بين ستة أفرادٍ فقط على التوالي وبفواصلٍ زمنيةٍ لا تتجاوز الثلاثَ دقائق بين كلِّ فردٍ وآخر، وأنَّ النتيجةَ النهائيةَ هي أنَّ

ثلاثين في المائةِ من مضمونِ الرسالةِ قد اختلف أو فُقِد أو تغير في غضونِ فترةٍ زمنيةٍ لا تتجاوز الثماني عشرة دقيقة.

وفور انتهاءِ المحاضرةِ اتَّجه "أحمد" إلى إحدى القاعاتِ في كليةِ الإعلام لحضورِ ندوةٍ عن حريةِ المرأة وتأكيدِ حقِّها في شغلِ مناصبِ القضاء، حيثُ ألقى كلمةً تعبرُ عن رؤيتِه والمتمثلة في تأييدِه لحقوقِ المرأةِ وتمكينِها، ورفضِه القاطعِ لأيَّةِ دعاوٍ أو أفكار تمنعُ المرأةَ من تولي مناصب معينة تحت أيّ حُجَّةٍ أو ذريعة، وأكد في كلمتِه أنَّ تطورَ الدنيا والحياةِ والمجتمعاتِ وأنماطِ الحياةِ البشريةِ، وتطور السلوكِ الإنساني والتعليم والثقافة وأساليب الحكمِ والإدارةِ واستتباب الأمنِ وانتشار الوسائطِ الإعلاميةِ، كل هذا يجعلُ من غيرِ المقبولِ وجودَ وظائف محرمة على فئةٍ من المجتمعِ ومحللة لفئةٍ أخرى.

وبعد انتهاءِ الندوةِ ذهب إلى سيارته وقاد مُتَّجهًا إلى منزله، وفور أن ركن سيارتَه أخذ معه حقيبتَه... ثمَّ خلع نظارتَه الصباحيةَ ووضعها في جرابِها داخل السيارة، ثمَّ صعد إلى شقتِه ودخل إلى غرفتِه لينام قليلًا فترة العصر.

استيقظ من نومِه فى تمامِ الخامسةِ مساءً -كعادتِه في السنواتِ الأخيرة- على صوتِ المنبه، دخل إلى الحمام، أخذ دشًّا سريعًا، ثمَّ ارتدى ثيابَه واتَّجه بسيارتِه إلى المسجد، وفور وصولِه قام بركنِ سيارتِه وأخذ معه حقيبتَه... ثمَّ وضع نظارتَه الطبيةَ المخصصةَ للفترةِ المسائية!

بعد فراغِه من الصلاة، اتَّجه إلى مقدمةِ الصفوفِ ليلقيَ درسَه الأسبوعيَّ الذي اعتاد إلقاءَه في هذا المسجدِ في السنواتِ الثلاث الأخيرة، وكان عنوانُ درسِ اليوم هو: "الدفاعُ عن السُّنَّةِ النَّبويَّة". أخذ يشرحُ للحاضرين دورَ السُّنَّةِ ومكانتَها في الدينِ الإسلاميّ، وكيف أنَّ السُّنَّةَ تعتبرُ المفسر والموضح لأحكامِ القرآن الإجماليَّةِ، وكذلك قام بتوضيحِ أنواعِ السُّنَّةِ من حيثُ كونها سُنَّةً قوليةً أو فعليةً أو تقريرية.

وبعد أن أكمل شرحَه سأله أحدُ الحاضرين: من هم الصحابةُ الذين أوكل إليهم الرسولُ - عليه الصلاةُ والسلامُ - مهمةَ كتابةِ السُّنَّة (على غرارِ كتَبةِ الوحي)؟

فأجابه "أحمد": على الأرجحِ لا يوجدُ من الصحابةِ من هم كتبةٌ للسُّنَّةِ على غرارِ كتَبةِ الوحي، حيثُ أنَّ الرسولَ -عليه الصلاةُ

والسلامُ- كان قد نهى الصحابةَ عن كتابةِ أي شيءٍ يقولُه بخلافِ القرآن وذلك لضمانِ عدم اختلاطِ القرآن بالسُّنَّة.

وهنا سأله نفسُ السائل: ومتى إذن تمَّت كتابةُ السُّنَّة؟

فأجابه "أحمد": على أرجحِ الأقوالِ بعد وفاةِ الرسولِ -عليه الصلاةُ والسلامُ- بحوالي مائة وثمانين عامًا هجريًّا عن طريقِ بعضِ علماءِ الحديث، حيثُ كان كلُّ منهم يقومُ بتدوينِ ما لديه من أحاديث، ثمَّ بعد ذلك بدأت المجهوداتُ الكبرى عندما قام علماءٌ مثل "أحمد بن حنبل" و"مالك بن أنس" بتجميعِ ما لديهم وما لدي غيرهم من العلماءِ والحفظةِ في مجلداتٍ كبرى، وهكذا حتى جاء بعدهم بسنواتٍ علماءٌ آخرون استكملوا وأتمُّوا هذا العملَ الجليل مثل الأئمة: "البخاري" و"مسلم" و"الترمذي" و"ابن ماجه" و"أبو داوود" الذين قاموا بتدوينِ الأحاديث ورواتها وكيف وصلوا لكلّ حديثٍ شريف من هذه الأحاديث.

فسأله نفسُ الشخص مرةً أخرى: وكيف كان يتمُّ حفظُ وانتقالُ الأحاديثِ خلال الفترةِ من وفاةِ الرسولِ - عليه الصلاةُ والسلامُ - إلى بدايةِ عصرِ تدوين الأحاديث؟

فأجابه "أحمد": بشكل عام عن طريقِ الذاكرةِ والحفظِ والسمعِ من جيلٍ إلى جيل!!

فسأله نفسُ الشخص مرةً أخرى: وهل تصلحُ الذاكرةُ والحفظُ والسمعُ في الاحتفاظِ بكلِّ هذا التراثِ الهائلِ من الأحاديث؟ وهل تصلحُ هذه الطريقةُ في ضمانِ انتقالِ السُّنَّة النبويَّة إلينا سليمةً غيرَ منقوصةٍ ولا معيوبةٍ بدون تعديلٍ أو تغييرٍ أو حذفٍ أو إضافةٍ من جيلٍ إلى جيل لمدَّةِ ستة أجيالٍ متصلة، مع الأخذِ في الاعتبارِ أنَّ مدَّةَ كلِّ جيلٍ ثلاثون عامًا؟ أي لمدةِ ما يقربُ من مائة وثمانين عامًا؟!

فأجابه "أحمد" بحدة: هل تشككُ في السُّنَّةِ النَّبويَّة؟!

فأجاب الرجلُ: لا، أنا أريدُ أن أتحقق أنَّ ما لدينا الآن هو السُّنَّةُ النَّبويَّةُ الصحيحةُ فعلًا.

فأجابه "أحمد": بالطبع، ما لدينا الآن هو السُّنَّةُ النَّبويَّةُ الصحيحة، ومن أنت حتى تشكك في عملِ العلماءِ الأجلاءِ الذين قاموا بجمعِ الأحاديث؟

فأجاب الرجل: أنا لا أشكك في أحد ولا في عملِ أحد، أنا أريدُ أن أطمئن أنَّهم جمعوا الأحاديثَ التي قالها الرسولُ فعلًا وليس التي

ظنَّوا أنَّه قالها، فمثلًا هناك أحاديثٌ في "البخاري" و"مسلم" تجدُ فيها أنَّ الحديثَ الواحدَ يمتدُّ إلى صفحتين وأحيانًا ثلاث صفحات، فكيف يحفظُ شخصٌ واحدٌ كلَّ هذا الكلامِ ويظلُّ في عقلِه لمدَّةِ ثلاثين عامًا ثمَّ ينقلُه -مسموعًا غيرَ مكتوب ومحفوظًا في الذاكرةِ غيرَ مدونٍ أو مسجل- لشخصٍ آخرٍ (من جيلٍ آخرٍ له مفاهيمٌ ولهجةٌ وعاداتٌ وتقاليدٌ وثقافةٌ ومنظومةٌ عقلية مختلفة) ليظلَّ في عقلِه ثلاثين عامًا أخرى، وهكذا على مدارِ ستة أجيالٍ متتالية، إلى أن يصلَ بعد كلِّ هذا إلى العالِمِ الذي قام بالتدوينِ دون أيِّ إضافةٍ أو حذفٍ أو تعديلٍ أو تغييرٍ أو حتى خطأ بشري من الممكنِ أن يقعَ فيه أيُّ شخصٍ حافظٍ لأي نص غير مكتوب؟ وهل سيصل إلينا مضمونُ النصِّ نقيًّا سليمًا تامًا متمَّمًا دون اختلاف بسيطٍ ولو حتى عشرين في المائة في خلال المائة وثمانين عامًا؟!

وهنا ساد صمتٌ في المسجدِ استمر ما يقربُ من عشرين ثانية نظر فيها الجالسون شزرًا للرجلِ الذي تجرأ وسأل هذه الأسئلة، ثمَّ استقرت أنظارُهم أخيرًا عند "أحمد" الذي قال: هذا هو ديننُا وهذه هي سُنَّةُ نبينا الذي أمرنا الله باتباعه واتباع سُنَّتِه فلا تكثر الجدلَ ولا تحاول التشكيكَ في السُّنَّةِ ومصادرِها!! فقد قام عشراتٌ - إن لم يكن مئات - من العلماءِ بمراجعةِ السُّنَّة متنًا

وسندًا عبر العصورِ، وكذلك مراجعةِ سِيَرِ كلِّ الرواةِ والحفظةِ، واستبعادِ كل من وجدوا عليه تحفُّظًا، لكي تصلَ إلينا السُّنَّةُ في شكلِها المتكاملِ الذي هي عليه الآن!! وأنهى "أحمد" النقاشَ عند هذه الجملة.

وبعد فراغِه من إلقاءِ الدرس، اتَّجه "أحمد" إلى سيارته حيثُ كان ذاهبًا لحضورِ ندوةٍ يعقدُها أحدُ الأحزابِ الإسلامية، وكان موضوعُ الندوة:"هل يجوزُ للمرأةِ أن تتولى المنصبَ التنفيذيَّ الأعلى في الدولة (الرئاسة)؟". وكانت أغلبُ آراءِ الحاضرين أنَّ المرأةَ لا يحقُّ لها شرعًا أن تتولى هذا المنصبَ، لأنَّه لا تجوز الولايةُ الكاملةُ للمرأةِ على الأمةِ ولكن يحقُّ لها فقط تولي مناصبَ استشارية. ولكن قلةٌ من الحضورِ دفعت بأنَّ تطور الدنيا والحياة والمجتمعات وأنماط الحياة البشرية، وتطور السلوكِ الإنساني والتعليم والثقافة وأساليب الحكمِ والإدارة واستتباب الأمنِ وانتشار الوسائطِ الإعلاميةِ، كلَّ هذا جعل الأمورَ تتغير وما كان عائقًا أمام المرأةِ بالأمسِ لم يعد كذلك اليوم.

فاستأذن "أحمد" من المنصَّةِ التي وافقت له على الرد فقال: إنَّ الدينَ لا يتغير، وقد أتى الإسلامُ ليغيرَ ما في الناس وليس ليغيرَ الناسُ ما فيه، وبالتالي فما هو مسموحٌ من ألف وأربعمائة عامٍ لا

يزال مسموحًا الآن، وما كان محرمًا وقتها فهو لا يزال محرمًا حتى الآن، أمَّا تطور الدنيا واختلاف أنماط الحياة فلا يمكن بحال اعتباره حجةً على الإسلامِ لتغييرِ أحكامِه وهناك نصٌّ يمنعُ المرأةَ من تولي منصبَ الإمامةِ العظمى، وبالتالي فالحكمُ الشرعيُّ واضحٌ لا لبس فيه ولا جدال. وفور أن أنهى كلامَه صفَّق له الجميعُ إعجابًا برأيِه وقوةِ حُجَّتِه.

وبعد انتهاءِ الندوةِ اتَّجه إلى سيارتِه ثمَّ قاد في هدوءٍ حتى وصل إلى منزلِه، ثمَّ ركن سيارتَه وأخذ حقيبتَه... ثمَّ خلع نظارتَه المسائيةَ ووضعها في جرابِها بجوارِ نظارتِه الصباحية.

وضع "أحمد" جسدَه المنهكَ على السريرِ ورأسَه المزدحمةَ بالأفكارِ على الوسادة، بعدها بدأ يحسُّ بصداعٍ نصفيٍّ يزحفُ عليه تدريجيًّا كعادتِه معه كلَّ مساءٍ في السنةِ الأخيرة، وبعد عدَّة دقائق وصل الألمُ في رأسِه إلى درجةٍ لا تحتمل، فاتصل بطبيبٍ صديقٍ له ليستشيرَه.

فأجابه صديقُه الطبيب: لقد قلتُ لك مرارًا وتكرارًا أنَّه لا يجوز أن تستمرَ في تبديلِ النظارتين يوميًّا بهذه الطريقة، فحالتُك ستزداد سوءًا يومًا بعد يوم، عليك أن تختارَ نظارةً واحدةً لترى

بها الدنيا والأشياءَ وتستغني عن الأخرى وإلا سيظل هذا الصداعُ يصاحبُك إلى الأبد.

وبعد انتهاءِ المكالمةِ أخذ يفكرُ في أي من النظارتين سيحتفظُ بها وأي منهما سيستغني عنها، هل نظارة الصباحِ أم نظارة المساء؟ لم يستطع التوصلَ لقرار، فتناول - كالعادة - المنومَ الذي أصبح لا يستطيع النومَ بدونه، وأوقف عقلَه عن التفكير... ونام مقررًا الاحتفاظَ بالنظارتين معًا... وبالصداعِ... وبالحيرة!

obeikan.com

"الظِّل"

بعد منتصفِ الليل بقليل وفي أحدِ شوارعِ "الأسكندرية" الضيقة، كان "وحيد" يمشي دون صحبةٍ متجهًا إلى بيتِه عائدًا من عملِه في أحدِ مكاتبِ الترجمة، كانت حركتُه بطيئةً ومشيتُه متثاقلةً وذلك ليس فقط بسببِ سنواتِ عمرِه البالغة خمسة وخمسين عامًا أو وزنِه الزائدِ بشكلٍ كبيرٍ، ولكن أيضًا بسببِ إرهاقِ يوم عملٍ طويلٍ استمر ما يقربُ من ست عشرة ساعةً متواصلة.

كانت أغلبُ الشوارعِ التي يسيرُ فيها مظلمةً للغاية نتيجةَ انقطاعِ التيارِ الكهربائيّ عن بعضِ مناطقِ "الأسكندرية" في تلك الليلة، كما كان قمرُ تلك الليلة محاقًا بلا أيّ انعكاسٍ لشعاعِ ضوءٍ على الإطلاق.

كان من عادةِ "وحيد" أن يعودَ من عملِه مشيًا ليستمتعَ يوميًّا بربعِ ساعةٍ من التنزهِ في شوارعِ "الأسكندرية" القديمةِ ذات عبقِ الماضي الجميلِ، ونكهةِ التاريخِ المتنوعِ الذي يمتزج - بكثيرٍ من العشوائية - ببعضِ ملامحِ الحاضرِ المتطلع.

مشى "وحيد" متجهًا إلى حيثُ يسكنُ في شقةٍ صغيرةٍ في أحدِ أحياءِ "الأسكندرية" القديمة، وهي الشقةُ التي عاش فيها عمرَه كلَّه منذُ ولادتِه حتى الآن، ففيها وُلد ثمَّ عاش مع والديه، وبعد رحيلِهما ورث الشقةَ من بعدِهما واستمر فيها حتى الآن، فقد خاف أن يفكرَ في الانتقالِ أو التغيير. كان "وحيد" يعيشُ وحيدًا، فهو لم يكن لديه أولادٌ حيثُ أنَّه عاش رافضًا للزواجِ بشكلٍ مطلقٍ خوفًا من سوءِ الاختيار، فديانتُه المسيحيةُ ومذهبُه القبطيُّ الأرثوذوكسي يمنعان الطلاقَ تمامًا ممَّا جعله خائفًا إن أساء الاختيارَ ألَّا يجد مخرجًا من هكذا ارتباط.

لم يكن "وحيد" اجتماعيًّا وليس له إلَّا عددٌ محدودٌ من المعارفِ اكتسبهم عن طريقِ الكنيسةِ الصغيرةِ التي كان يداومُ على الصلاةِ فيها بشكلٍ أسبوعيٍّ منذُ خمسة وأربعين عامًا، وفيما عدا ذلك ليس له حياةٌ اجتماعيةٌ تذكر، فقد نما لديه بالتدريجِ

شعورٌ بالخوفِ من النَّاس لذلك جعل تعاملاتِه معهم في أضيقِ الحدود.

وبينما كان "وحيد" يمشي في طريقِه متجهًا إلى منزلِه، اقترب من كنيستِه ومشى بمحاذاةِ سورِها الغربي فلاحظ أنَّها معتمةٌ تمامًا وأبوابها مغلقة. وكان الظلامُ شديدًا حيثُ أنَّ الكهرباءَ كانت مقطوعةً عن هذه المنطقةِ بالكامل. كانت الكنيسةُ واقعةً على ناصيةٍ تُمثِّلُ تقاطعَ الشارعِ الذي كان سائرًا فيه مع الشارعِ الذي يسكنُ فيه، ولكي يواصلَ "وحيد" سيرَه إلى منزله كان لا بد له أن ينعطفَ يمينًا ويسيرَ بمحاذاةِ سورِ الكنيسةِ الشمالي، وبالفعلِ انعطف يمينًا بحيثُ تظلُّ الكنيسةُ على يمينِه، وفجأةً لاحظ أنَّ بابَ الكنيسةِ المجاور له يفتحُ ببطءٍ وهدوءٍ وينبعثُ من ورائه شعاعُ ضوءٍ خافت، فتملكه بعضُ الفضولِ وتوقَّف قليلًا ليعرفَ من الذي فتح البابَ وما هو مصدرُ الضوءِ الضعيف!

فاكتشف أنَّ الذي فتح البابَ هو أحدُ خُدَّامِ الكنسيةِ من الكهنةِ ذوي الزيِّ الأسود وكان يحملُ في يدِه شمعةً صغيرةً يستعينُ بنورِها على الحركةِ في هذا الظلامِ الدامس. لم يتوقف "وحيد" ليتبينَ من هو الكاهنُ الذي فتح الباب، بل آثر الاستمرارَ في طريقِه حيثُ كان التعبُ والإرهاقُ قد بلغَا منه مداهُما، وفضَّل

مواصلةَ طريقِه للوصولِ إلى منزله في أسرعِ وقتٍ ممكن ليرتاحَ من عناءِ يومِه الطويل، فقد كان إرهاقُه أكبرَ من فضولِه.

تجاوز "وحيد" في سيرِه خادمَ الكنيسةِ الذي كان يحملُ الشمعةَ وأصبح هو أمام الكاهن، ولأولِّ مرةٍ في تلك الليلةِ يظهرُ له ظلٌّ نتيجةَ ضوءِ الشمعةِ الخافت، كان الظلُّ خافتًا مثل صاحبِه، باهتًا مثل من يُمثِّلُه، بطيءَ الحركةِ متثاقلًا ليعكسَ حركةَ "وحيد" البطيئةَ في المشي والحياة، وبالتأكيدِ كان الظلُّ وحيدًا في هذا الليلِ المظلمِ والشوارعِ السَّاكنةِ وأيضًا مثل من يملكُه اسمًا وصفة.

ولأنَّ الشمعةَ كانت خلفَ "وحيد" فقد ظهر الظلُّ أمامَه، وكلَّما كان يخطو خطوةً كان الظلُّ يزدادُ خفوتًا، و"وحيد" يمشي ببطءٍ ناظرًا إلى ظلِّه حتى كاد "وحيد" يبلغ نهايةَ سورِ الكنيسةِ الصغيرة، عندها بدا كما لو أنَّ ظلَّه قد اختفى تمامًا، إلَّا أنَّ الفضولَ قد عاد ليتملكَه مرةً أخرى رغبةً منه في معرفةِ من الكاهنُ الذي فتح بابَ الكنيسةِ حاملًا الشمعة، فتوقف لبرهةٍ وأخذ شهيقًا عميقًا ونظر خلفَه إلى حيثُ كان الكاهنُ يقفُ حاملًا شمعَته، إلَّا أنَّه لم يجد الكاهنَ ولم يجد الشمعة، فقط وجد

بابَ الكنيسةِ مقفلًا ووجد ظلامًا شديدًا، فعاد والتفت أمامَه ليكملَ رحلتَه إلى منزله، إلَّا أنَّه فوجئ بما يراه، فقد بدا له وكأنَّ ظلَّه واقفٌ مستندٌ على نهايةِ سورِ الكنيسة، فرك عينيه ورجع خطوتين للخلفِ وأعاد التحديقَ مرةً أخرى، فإذا بظلِّه الأسودِ يقفُ مستندًا على السورِ ناظرًا إلى الأرضِ دونما أيّ حركةٍ أو إيماءةٍ أو صوت!

قال في نفسِه لعلَّه الإرهاقُ الشديدُ الذي جعله يتخيلُ أشياءً غيرَ موجودةٍ أو لعلَّه انعكاسٌ ما لشعاعِ ضوءٍ ما ظهر على سورِ الكنيسة، رسم علامةَ الصليبِ على صدرِه ولم يواصل النظرَ إلى حيثُ كان يقفُ الظل، ثمَّ سار عدة خطوات باتجاه منزلِه متجاوزًا الكنيسةَ بقليل حتى أصبح يسيرُ بمحاذاةِ سورٍ لحديقةٍ صغيرة -ملاصقة للكنيسةِ- أقامها أهالي الحي بالجهودِ الذاتية.

لم يكن سورُ الحديقةِ يظهرُ ما خلفه، فهو وإن كان عبارة عن سورٍ خشبيٍّ منخفضِ الارتفاع إلَّا أنَّ خلفه مباشرة ستار من الأشجارِ العاليةِ المتراصةِ بحيثُ تمثلُ تلك الأشجار السورَ الفعليَّ للحديقة. كان الظلامُ لا يزال شديدًا، فلم يكن هناك أي مصدرٍ للضوءِ على الإطلاق، بالإضافةِ إلى أنَّ الشارعَ كان خاليًا تمامًا من

أيَّةِ سياراتٍ تتحركُ فيه وبالتالي لم تكن هناك فرصة لوجود أيِّ ضوءٍ أو انعكاسٍ لضوءٍ من أضواءِ السيارات.

أخذ الهواءُ يحركُ أغصانَ الأشجارِ محدثًا صوتًا يزيدُ من جوِّ الشجنِ المحيطِ بـ"وحيد" في تلك الليلة. التفت "وحيد" إلى حيثُ الأشجار مشدودًا بالصوتِ الذي تحدثُه حركةُ أغصانِها بفعلِ الريح، فشاهد ما حاول أن يقنِعَ نفسَه بأنَّه شخصٌ يرتدي زيًّا أسودًا يقفُ مستندًا على سورِ الحديقةِ ناظرًا إلى الأرض، فاقترب قليلًا ليكتشفَ أنَّ ما يراه ما هو إلَّا ظله الذي شاهده منذ أقل من نصفِ دقيقةٍ عند نهايةِ سورِ الكنيسة.

التفت "وحيد" حوله عدَّةَ مراتٍ ونظر في كلِّ الاتجاهاتِ فلم يجد أحدًا بخلافِ الظل. اقترب من سورِ الحديقةِ وأخذ يتفحَّصُ ويتمعَّنُ - بعمقٍ ودقة - هذا الخيالَ الأسود، أدرك أنَّه يشاهدُ صورةً من نفسِه ولكنَّها أكثرُ سوادًا وعتمةً منه، صورة تقفُ منطويةً على نفسِها وناظرةً إلى الأرض.

وبعد أن استجمع "وحيد" شتاتَ نفسِه وتجاوز اندهاشَه وخوفَه، نظر إلى ظلِّه وبادره بالقول: من أنت؟

فلم يجب الظل، فأعاد عليه السؤالَ مرةً أخرى، فاستمر الظلُّ على صمتِه إلَّا أنَّه أشار إلى "وحيد" بسبابتِه.

أخذ "وحيد" شهيقًا عميقًا ثمَّ سأله: لماذا تقفُ وحدك؟

فأجابه الظلُّ هذه المرة: أنا وحيدٌ منذُ فترةٍ طويلة!!

تعجَّب "وحيد" من الإجابةِ فصمت قليلًا، واستمر الظلُّ إلى الأرضِ ناظرًا وعلى سورِ الحديقةِ مستندًا، وبعد فترةِ الصمتِ قال له "وحيد":

أنا ذاهبٌ إلى البيتِ عائدًا من عملي... نستطيعُ أن نمشيَ معًا بدلًا من وقوفِك وحيدًا... إن أردت.

صمت الظلُّ لثوانٍ ثمَّ رفع رأسَه لينظرَ إلى "وحيد" ثمَّ قال له:

لا أستطيعُ أن أمشيَ معك فأنا لا أبتعدُ مطلقًا عن محيطِ الكنيسة.

وبعد أن أنهى جملتَه عاد لينظرَ إلى الأرضِ مرةً أخرى، ازداد "وحيد" حيرةً من سلوكِ ظلِّه فسأله متعجبًا: منذُ متى وأنت لا تغادرُ محيطَ الكنيسة؟

فأجابه الظلُّ -وهو ناظرٌ إلى الأرض-: منذُ أن جعلتَ أنت الكنيسةَ هي كل محيطِك!

استفزت هذه الإجابةُ "وحيد" بدرجةٍ كبيرةٍ واستفزه أكثر بقاءُ الظلِّ ناظرًا إلى الأرضِ بشكلٍ شبهِ دائمٍ وبالذات أثناء رده على معظمِ أسئلتِه.

فسأله بتهكمٍ -وهو في الواقعِ لا ينتظرُ منه إجابةً-: ومنذُ متى وأنت لا تكادُ تنظرُ إلَّا إلى حيثُ موضع قدمك؟!

فأجابه الظلُّ بعد أن رفع رأسَه ببطءٍ ونظر إليه: منذُ أن توقفت أنت عن النظرِ لما هو أبعد من قوتِ يومِك!

زادت هذه الإجابةُ من شعورِ "وحيد" بالاستفزازِ وكأنَّما وَضَعَت ملحًا في جرحِه فأصيب بالتهيُّج، كما أَعطَت هذه الإجابةُ إحساسًا لـ"وحيد" بأنَّه كتابٌ مفتوحٌ أمام ظلِّه.

فسأله - ولكن بشكلٍ أكثر حدةً وتهكمًا -: ومنذُ متى وأنت شديدُ السوادِ والإظلام؟

فأعاد الظلُّ نظرَه إلى الأرضِ وأجاب بصوتٍ خافتٍ حزين: منذُ أن فَقَدَت روحُك معنى الألوانِ، وفقد عقلُك معنى النور... منذُ أن توقفتَ أنت عن الحلمِ والطموحِ والتفكير!

كان وقعُ الإجاباتِ مفاجئًا وصادمًا لـ"وحيد" فأخذ عدَّةَ خطواتٍ إلى الخلفِ مبتعدًا عن ظلِّه، أحس باختناقٍ وكأنَّه غيرُ

قادرٍ على التنفس، حاول أن يتنفسَ بعمقٍ وبطءٍ لعلَّه يتجاوزُ تأثيرَ صدمةِ الحوارِ مع ظلِّه، وحاول أن يطردَ عنه الخوفَ والرهبةَ لكي يستمرَّ في هذا الحوار.

وبعد دقيقتين تمالك "وحيد" نفسَه واتَّجه إلى ظلِّه وسأله: ولماذا ظهرت الآن؟

فأجابه الظلُّ - ولكن بعد أن تحرك عدَّةَ خطواتٍ باتجاه سورِ الكنيسةِ ودون أن يرفعَ بصرَه من على الأرض -: أنا أظهرُ ملاصقًا لك بشكلٍ دائم... لعلَّك تقصد: لماذا انفصلتُ عنك هذه الليلة؟

فصمت "وحيد" عدَّةَ ثوان ثمَّ قال له - بعد أن تحرك هو الآخر عدَّةَ خطواتٍ باتجاه سورِ الكنيسة-: نعم، هذا هو ما أقصدُه، لماذا انفصلتَ عني هذه الليلة؟! ولماذا تتحدثُ معي الآن؟!

بعد أن استمع الظلُّ إلى سؤالِ "وحيد"، تحرك في هدوءٍ مرةً أخرى عدَّةَ خطواتٍ باتجاه الكنيسةِ حتى أصبح مستندًا على نهايةِ سورِها، ثمَّ رفع رأسَه ببطءٍ ونظر إلى "وحيد" وقال له بتعجب: لستُ أنا من قرَّر الانفصالَ عنك ولستُ أنا من قرَّر إجراءَ هذا الحوار!

فقال له "وحيد" متعجبًا: ما الذي تقصدُه؟

فأجابه الظلُّ: أنت من يحاولُ منذُ سنواتٍ إجراءَ هذا الحوار، وأنت من يطلبُ منذُ فترةٍ طويلةٍ الانفصالَ بيننا!

فقال له "وحيد" بحدةٍ -بعد أن تحرك هو الآخر عدَّةَ خطواتٍ ليصبح مقابلًا لظلِّه-: لم أطلب يومًا الانفصالَ بيننا، ولم أسعَ إلى إجراءِ أيِّ حوارٍ معك... ما هذا الذي تقولُه؟

فقال له ظلُّه: بل إنَّ روحَك تصرخُ طالبةً هذا الانفصالَ منذُ سنواتٍ وعقلَك يلحُّ عليك لإجراءِ هذا الحوار منذُ زمنٍ طويلٍ دون أن تواتيك الجرأةُ لتُصرّح بهذا، فأنت في أعماقِك تدركُ أنَّني أمثلُ قيدًا على روحِك وعقلِك وتصرفاتِك وربَّما على أحلامِك يقظةً ومنامًا!

فقال له "وحيد" متعجبًا وبلهجةٍ حادة: وكيف تعرفُ أنت كلَّ هذا عني؟!

فقال له ظلُّه متعجبًا: أنا من داخل روحِك خرجتُ ومن ثنايا قناعاتِك تكوَّنتُ وتشكَّلتُ، ومن تفكيرِك وفهمِك لإيمانِك انبعثَت فيَّ الروحُ واستمريت!

هنا أدرك "وحيد" أبعادَ الموقف، فقد جاءت اللحظةُ التي ظلَّ يهربُ منها طيلةَ سنواتِ عمره، جاء وقتُ المواجهةِ مع الذاتِ

والمصارحةِ مع النفس وحانت لحظةُ القرار، لم يدرك قبل ذلك أنَّ الهربَ من الحياةِ لا يمكن أن يستمرَّ إلى ما لا نهاية، وأنَّ تجاهلَ تساؤلاتِ عقلِه وأحلامِ روحِه لا يمكنُ أن يستمرَّ إلى الأبد.

كان الظلامُ لا يزالُ سائدًا في المنطقةِ كلِّها، والصمتُ والسكونُ هما الصوتُ الوحيدُ الذي يسمعُه بخلافِ صوتِ حوارِه مع ظلِّه.

أخذ "وحيد" خطوةً إلى الخلفِ بعد أن قرَّر المواجهةَ والاستمرارَ في الحوارِ حتى نهايتِه، ثمَّ قال لظلِّه بصوتٍ حاول قدرَ استطاعتِه أن يعكسَ بعضًا من ثقةٍ وقدرًا من قوة: حسنًا، ما دمنا نعرفُ بعضَنا منذُ وقتٍ طويلٍ وما دامت الأمورُ قد اتضحت حول سببِ حوارِنا، فأنا أريدُك أن تجيبَني على سؤالٍ واحد: لماذا لا تريدُ أنت الانفصالَ عني؟ لماذا تلازمُني منذُ سنواتٍ طويلة؟

فأجابه ظلُّه: ولماذا أرحلُ عنك وابتعد؟ فأنت من أوجدتني لأنَّك تريدُني وتحتاجُني.

فقال له "وحيد": أنا لم أوجِدك ولا أحتاجُك أصلًا!

فضحك ظلُّه وقال له: بل أنت من أوجدتَني وتوليتَني بالرعايةِ حتى كبرتُ تدريجيًّا وأصبحتُ أقوى منك وأكثر رسوخًا وثباتًا.

فقال له "وحيد" متسائلًا بصوتٍ مرتفعٍ وبحدةٍ وإنكار: أنا أوجدتُك وتوليتُك بالرعاية؟! كيف هذا؟

فأجابه ظلُّه: نعم، أوجدتَني وتوليتَني بالرعايةِ في كلِّ مرةٍ كنتَ تهربُ فيها من حلمٍ لك، في كلِّ مرةٍ كنتَ تتراجعُ عن تجربةِ شيءٍ جديد، في كلِّ مرةٍ كنتَ تبتعدُ فيها عن أقاربِك وأصدقائِك القدامى وكل معارفك، عندما حوَّلتَ عملَك إلى روتينٍ قاتل، منذُ أسلمتَ عقلَك وروحَك إلى بعضِ رجال الدينِ منغلقي الفكر ليضعوا فيهما ما يشاؤون من أفكارٍ وتعاليمٍ دون أن تحاولَ حتى التفكيرَ فيما يقولون، أوجدتَني منذُ هربتَ من الزواجِ والإنجابِ وتكوينِ عائلة، أوجدتَني منذُ قتلتَ الطموحَ في نفسِك، وكلَّما كنتَ تستمرُّ في الانسحابِ من الحياةِ وتواصلُ هذا النمطَ من الأفعالِ والتصرفاتِ كنتُ أنا ازدادُ قوةً وسيطرةً عليك.

ألجم الردُّ لسانَ "وحيد" وساد صمتٌ بينهما عدَّةَ دقائق، وبعدها قال له "وحيد": لن أجادلَك فيما قلت ولكنَّني الآن أريدُك أن ترحل، أريدُ أن أحلمَ وأفكرَ وأقررَ وحدي، أريدُ أن أحاولَ أن أحيا!

صمت ظلُّه ثوان ثمَّ قال له متسائلًا بهدوءٍ وثقة: هل حقًا تعتقدُ أنَّك تستطيعُ أن تحيا بدوني؟ ثمَّ ضحك ضحكةً بها نغمةٌ من الثقةِ الممزوجةِ ببعضِ الشرّ وقال له: حسنًا، أتريدُني أن أرحل؟! أنا على استعداد أن أرحلَ وأنفصلَ عنك فورًا بشرطِ أن تجيبَ لنفسِك عن سؤالٍ واحد: إذا رحلتُ أنا وانفصلتُ عنك، فمن ستكونُ أنت بعد رحيلي؟

كان وقعُ السؤالِ صادمًا على "وحيد"، وبعد أن حاول أن يفكرَ في إجابةٍ له ازداد وقعُ الصدمةِ عليه، أحس أنَّ قلبَه أصبح فارغًا وأنَّ جزءً من روحِه قد اختفي وأنَّ عقلَه أصبح مشتتًا، إلَّا أنَّه حاول التماسكَ.

وقال لظلِّه: سأكونُ شخصًا جديدًا، سأنظرُ للحياةِ بمفهومٍ جديد، سأتعلمُ أشياءً جديدة، سأبحثُ عن وظيفةٍ أحققُ بها ذاتي، سأفكرُ بطريقةٍ جديدة، سأتعرفُ على أصدقاءٍ ومعارفٍ جدد، سأجددُ إيماني، سأُكوّنُ أسرة، فقط أريدُك أن ترحل!

فابتسم ظلُّه قائلًا: أنا هنا في مكاني الطبيعي، تستطيعُ أنت الرحيلَ والانفصالَ عني بكلِّ سهولة... إن أردت!

وبعد أن أنهى الظلُّ جملتَه سار لعدَّةِ أمتارٍ باتجاه بابِ الكنيسةِ المغلقِ ثمَّ وقفَ مستندًا على البابِ وقال لـ"وحيد": تستطيعُ الآن

الرحيلَ... إن أردت! أنت حرٌّ... إن أردت! لن أشكلَ قيدًا عليك بعد اليوم... إن أردت! لن أكونَ جزءًا منك بعد اليوم... إن أنت أردت!

سار "وحيد" متثاقلًا عدَّةَ خطواتٍ متجاوزًا سورَ الكنيسةِ حتى أصبح بمحاذاةِ الحديقةِ ثمَّ توقف تدريجيًّا، أدرك أنَّه بدونِ ظلِّه ربَّما يكونُ لا شيء، خاف أن يواجهَ الحياةَ وحده ويتخذَ قراراتِه بنفسِه دون وصايةٍ من ظلِّه، خاف أن يغيرَ منظومةَ قيمِه ومعتقداتِه، خاف من فكرةِ الحلمِ والتجديد، اكتشف أنَّ خوفَه من التغييرِ وربَّما خوفَه من الحياةِ أكبرُ ممَّا كان يتصور، وأيقن أنَّ ارتباطَه بظلِّه - الذي لازمه منذُ نعومةِ أظفارِه - أوثقُ من أن يفكر في قطعِه، فهذا الارتباطُ نما وتوطد مع مرورِ الوقتِ ومع كلِّ قرارٍ كان يتخذُه في حياتِه وربَّما يكون قد فات أوانُ محاولة تجاوزِه!

"الحب المستحيل"

في أحدِ شوارعِ "مدريد"، ومع خفوتِ شعاعِ غروبِ الشمسِ البرتقاليِّ تدريجيًّا في هذا اليومِ الربيعيّ الجميل، أخذ "نادر" يهرولُ مسرعًا هربًا من بعضِ زخَّاتِ المطرِ التي بدأت تتساقطُ على استحياء.

"نادر" هو فنانٌ تشكيليٌّ ثلاثينيٌّ أتى من "مصر" خصيصًا ليقيمَ أولَ معارضِه في أوروبا، واختار "مدريد" تحديدًا لأنَّه وجد راعيًا أسبانيًا تمثَّل في شركةِ دعاية وإعلان يتعاملُ معها، حيثُ وافقت على تحمُّلِ كافةِ تكاليفِ المعرضِ في مقابلِ نسبةٍ من إيرادات بيعِ اللوحات.

كان "نادر" عائدًا من معرضِه في يومِه الرابعِ والأخير، وكانت حصيلةُ المعرضِ هي بيعُ نصفِ لوحاتِه وقليلٌ من النجاحِ على

المستوى الفني، حيثُ قامت عدَّةُ مجلَّاتٍ فنيَّةٍ ودوريَّاتٍ مهتمةٍ بالفنِّ التشكيليّ بتغطيةِ المعرضِ وجاءت بعضُ المقالاتِ إيجابية.

أحس "نادر" ببعضِ السعادةِ نتيجةَ النَّجاحِ المقبولِ الذي حقَّقه، وأحس كأنَّ روحَه ترفرفُ داخل وجدانِه تريدُ أن تطيرَ إلى حيثُ المستقبلِ لتستشرفَ إشراقاتِه من أجلِ مزيدٍ من النجاحِ، خصوصًا وأنَّه قد كرَّس كلَّ حياتِه لعملِه رافضًا فكرةَ الزواجِ أو الارتباطِ حتى لا تشغله عن طموحاتِه الفنية.

كان "نادر" يفكرُ في شيءٍ واحدٍ فقط طيلة الطريقِ من معرضِه وحتى الفندق وهو المستقبل، لم ينشغل كثيرًا بالحاضرِ ولم يضبط نفسَه متلبسًا بالتفكيرِ في الماضي، كان جلُّ همِّه هو المستقبل، حتى فرحتُه بنجاحِ معرضِه كان سببُها الرئيسيُّ أنَّ ذلك سيمنحُه مستقبلًا أفضل، وكثيرا ما منعه التفكيرُ الدائمُ في المستقبلِ من الاستمتاعِ بنجاحاتِ الحاضرِ إلَّا في حدودِ كونه درجة في سلمِ الوصولِ إلى الزمنِ القادم.

بعد عدَّةِ دقائق وصل "نادر" إلى الفندقِ الذي يقيمُ فيه، والذي اختاره خصيصًا بناءً على نصيحةِ أحدِ أصدقائِه بسببِ موقعِه المتميزِ المطل على إحدى أجملِ حدائق "مدريد"، كما يمتازُ هذا

الفندقُ أيضًا بقربِه من معرضِه وكذلك بقربِه من بعضِ الأماكنِ التجارية.

وبعد دخولِه الفندق وصعودِه إلى غرفتِه، نظر من خلفِ شباك غرفتِه فوجد الأمطارَ تتزايدُ بشكلٍ كبير، كان يخططُ لزيارةِ أحدِ الأسواقِ التجاريَّةِ القديمةِ ذاتِ الطرازِ المعماريّ الأندلسيّ العريقِ ومقابلةِ بعضِ المعارفِ هناك احتفالًا بنجاحِ المعرض، اتصل بمكتبِ الاستقبالِ لحجزِ سيَّارةِ أجرة، فنصحه الموظفُ المسئولُ بالبقاءِ في الفندقِ وعدم الخروجِ هذه الليلة بسببِ سوءِ الأحوالِ الجوية.

أصابته هذه النصيحةُ ببعضِ الضيقِ فقد كانت هذه الليلةُ هي آخر ما تبقى له من ساعاتٍ في رحلتِه إلى "مدريد" حيثُ أن طائرتَه سوفُ تغادرُ إلى "القاهرة" في صباحِ اليومِ التالي.

بدَّل ثيابَه وجلس أمام التلفازِ لمدَّةِ ساعةٍ كاملةٍ يقلِّبُ قنواتِه دون أن يجدَ ما يشده، أصابه بعضُ الملل، فوقف واتَّجه إلى الشباكِ ثمَّ أزاح الستارة، واتَّجه ببصرِه إلى السماءِ ناظرًا من خلالِ شباكِ الغرفةِ وإذا به يفاجأ من سوءِ حالةِ الجو، الأمطارُ تهمرُ بشدةٍ كأنَّها تخرجُ من صنبورٍ مفتوحٍ عن آخره، أضواءُ البرقِ تتلألأ كما الألعابُ النارية، ثمَّ بدأ يسمعُ أصواتَ الرعدِ

الهادرةِ فور أن فتح الشباكَ لعدَّةِ سنتيمترات، إلَّا أنَّ شدَّةَ برودةِ الهواءِ أجبرته على إعادةِ إغلاقِه بعد بضعة ثوان.

أعاد إغلاقَ الستارةِ ثمَّ استلقى مجددًا على السريرِ ولكن بعد أن أغلق التلفاز، حيثُ أنَّ سوءَ حالةِ الجوِّ قد أثر بشكلٍ كبيرٍ على جودةِ استقبالِ الإرسال صوتًا وصورة.

بدأ يلعبُ في هاتفِه المحمول محاولًا كسرَ حالةِ الملل المفاجئ الذي نتج عن تغيُّرِ كلّ خططِه وبقائِه دونما شيءٍ يشغلُه، نظر إلى شاشةِ الهاتفِ فوجد أنَّه ضغط على نحوِ عشرين رقمًا دونما ترتيبٍ محدد، توقف للحظةٍ ثمَّ دفعه بعضُ الفضولِ وكثيرٌ من الرغبةِ في كسرِ الملل إلى أن يضغطَ زرَّ "اتصال"، وبالفعلِ ضغط زرَّ "اتصال" من غير أن يكون متوقعًا لأيِّ إجابةٍ أو حتى لأيِّ نتيجةٍ منطقيةٍ لما يفعلُه، إلَّا أنَّه فوجئ بالهاتفِ يستجيبُ ويُظهرُ علامة "جاري الاتصال"، كما ازداد اندهاشُه عندما وجد صوتَ جرسٍ يرن عند الطرفِ الآخر! وبعد عدَّةِ رنَّاتٍ فوجئ بمن يجيبُ في الطرفِ الآخرِ وإذا به صوتٌ نسائيٌّ ناعمٌ يردُّ بلهجةٍ شاميَّةٍ: "ألو"!!

فـوجئ "نـادر" بمـا حـدث وأعـاد النظـرَ إلى شاشـةِ هاتفِـه المحمولِ فتأكد أنَّه لم يتصل - بالخطأ - بشخصٍ يعرفُه وإنَّما قد اتصل بذلك الرقمِ الطويلِ العشوائي.

أعاد الصوتُ الشاميُّ الردَّ مرةً أخرى: ألو، من معي؟

لم يدرك "نادر" ما الذي حدث إلَّا أنَّ فضولَه دفعه للاستمرارِ في المكالمة، فأجاب باقتضاب: أنا "نادر" من "مصر" وموجودٌ حاليًا في "مدريد".

فرد عليه الصوتُ الناعمُ من الجانبِ الآخر: أهلًا سيد "نادر"، أنا "مريم"، من "اللاذقية"، وموجودةٌ حاليًا في "ڤيينا".

ثمَّ حاول "نادر" -بعد أن عرَّفَ نفسَه- أن يشرحَ الموقفَ فقال بشكلٍ واضح: لقد اتصلتُ بهذا الرقمِ عن طريقِ الخطأ.

فأجابت "مريم": خيرًا إن شاء الله، هل تقصدُ أنَّك تريدُ الاتصالَ بشخصٍ آخرٍ أم ببلدٍ آخرٍ أم بي أنا ولكن في وقتٍ آخر؟!

فرد "نادر": ممم، في الحقيقةِ لم أكن أريدُ الاتصالَ بأيّ شخصٍ في أيّ مكان ولكنَّني كنتُ أجلسُ وحيدًا في الفندقِ دونما شيءٍ أفعلُه، فقمتُ بضغطِ نحو عشرين رقمًا بشكلٍ عشوائيٍّ ثمَّ اتصلتُ دون أن أتوقع إجابة، آسفٌ إن كنتُ أزعجتك.

فقالت "مريم": لا يوجدُ إزعاجٌ على الاطلاق، وبالفعل يبدو أنَّ هناك شيئًا غريبًا قد حدث فرقمُك الذي يظهرُ على هاتفي طويلٌ للغاية، يبدو أنَّ سوءَ الأحوالِ الجويَّةِ في "ڤيينا" اليوم قد أثر على شبكاتِ المحمولِ هنا، عمومًا تشرفنا فقد كنتُ أنا أيضًا أجلسُ وحيدةً دونما شيءٍ أفعلُه حيثُ قمتُ بإلغاءِ جميعِ مخطَّطاتِي لهذه الليلةِ بسببِ سوءِ الأحوالِ الجويَّة.

فقال "نادر": هذا ما حدث معي بالضبطِ فقد قمتُ بإلغاءِ كلِّ مخططاتِي بسببِ المرتفعِ الجويِّ الحادِ الذي فاجأ "مدريد" الليلة، رغم أنَّني كنتُ أتوق للاحتفالِ بنجاحِ أول معارضي خارج "مصر".

فشد ذلك انتباهَ "مريم" فسألته: هل أنت مصور؟

فأجاب: لا، فنانٌ تشكيلي.

فقالت له "مريم": مبروك لنجاحِ معرضك، إنَّها خطوةٌ رائعةٌ أن تحاولَ عرضَ أعمالِك في أوروبا.

ثمَّ أصابها بعضُ الفضولِ وأضافت: هل تستطيعُ أن ترسلَ لي صورًا لبعضِ هذه الرسومات؟ ثمَّ أعطته بريدَها الإلكتروني.

فقال "نادر": بارك الله فيكِ، هل لك اهتماماتٌ فنية؟ سألها وهو يحاولُ إرسالَ صورٍ لبعضِ لوحاتِه إليها عن طريقِ البريدِ الإلكتروني، باستخدامِ حاسبه الشخصي المحمول (اللاب توب).

فأجابت: نعم، ولكن بشكلٍ محدودٍ فأنا مهتمةٌ كثيرًا بنوعيةِ الرسوماتِ المتعلقةِ بحياةِ "المسيح" وقصص القديسين إلَّا أنَّني أعشقُ الجمالَ عمومًا، فمثلًا أنا اخترتُ هذا الفندقَ تحديدًا لأُقيم فيه لأنَّه يطل على حديقةٍ صغيرةٍ غاية في الجمالِ تبدو من شرفةِ غرفتي وكأنَّها لوحةٌ فنية زاهية.

فعلَّق "نادر" قائلًا: أنا رسوماتي من نوعٍ مختلفٍ تمامًا، تجريديةٌ وتجريبيةٌ إلى حدٍ كبير، لم يسبق لي أن رسمت أيَّ لوحةٍ ذات طابعٍ دينيٍ إلَّا مرةً واحدةً عندما أديتُ العُمرةَ منذُ ثلاثِ سنوات، لقد أرسلتُ لكِ صورًا لأربعٍ من لوحاتي على بريدك الإلكتروني.

فقالت له "مريم": شكرًا جزيلًا، سأخبرُك فور استقبالي للبريدِ الإلكترونيّ ورؤيةِ الصور، ثمَّ أضافت محاوِلةً زيادةَ عمق ووقتِ الحوارِ بينهما حيثُ شعرت ببعضِ الارتياحِ تجاهه: هل سبق لك زيارة اللاذقية؟

فأجاب "نادر": للأسفِ لا، ولم أزر "قْيينا" كذلك.

فقالت "مريم": حقًا؟! أنا أزورُ "قْيينا" بانتظامٍ أربعَ مراتٍ سنويًّا.

فسألها "نادر" متعجبًا: لماذا؟

فأجابت: بحكمِ عملي، فأنا أعملُ في مجالِ السياحة منذُ تخرجتُ من الجامعةِ منذُ ثلاث سنوات، أنهت جملَتها واستغربت نفسَها من حجمِ المعلوماتِ الشخصيَّةِ التي تشاركُها مع هذا الرجلِ الغريبِ عنها والذي تتحدثُ معه لأولِ مرة.

فقال "نادر": أنا أغبطُك على مجالِ عملِك المتميز، تسافرين كثيرًا وتشاهدين كثيرًا.

فضحكت ضحكةً خفيفةً ثمَّ قالت له: وأنا أيضًا أرى أنَّ مجالَ عملك شديدُ التميز، لا سقفَ لأحلامِك ولا لموهبتِك، ولا قيودَ على فكرِك وأحلامِك وتعبيرِك ورسوماتِك.

ثمَّ سألته: كم عمرُك؟

فقال: ثلاثون عامًا.

فقالت مندهشةً: إنَّه لنجاحٌ كبيرٌ أن تقيمَ معرضًا في أوروبا وأنت لا زلتَ شابًا، يبدو أنَّك فنانٌ متميز.

فقال لها "نادر": شكرًا على الإطراء. بالمناسبةِ، ما عمرُكِ؟ وهل أنتِ متزوجة؟

فأجابت: خمسةٌ وعشرون عامًا، ولستُ متزوجة، وأنت؟

فقال: لا، لست متزوجًا. ثمَّ سألها: ما أقصى أحلامك في الدنيا؟

فقالت بعد صمتٍ لثوان: أريدُ أن أصلَ إلى إحساسٍ لم يصل إليه أحدٌ من قبل، ربَّما يكون عن طريق مبدأ في الحياة، عن طريقِ طريقةٍ مبتكرةٍ في التفكير، شيءٌ ما يخصُّ علاقةَ الإنسانِ بالله، إحساسٌ ما لم يصل إليه أحدٌ من قبل، أريدُ أن أصلَ إلى منطقةٍ في الروحِ لم يصل إليها أحدٌ قبلي. ثمَّ قالت ضاحكةً: مجنونةٌ أنا؟

فأجاب "نادر" بصوتٍ لم يتمكن من إخفاءِ ما به من إعجابٍ شديد: بل راقيةٌ أنتِ!

فقالت له: شكرًا على إطرائك، وماذا عن حلمِك أنت؟

فقال: أريدُ أن أجدَ طريقةً للعبورِ إلى المستقبل، أريدُ أن أعرفَ ما الذي سيحدثُ غدًا أو بعد غد، لا أريدُ انتظارَ الأحداث.

فقالت له "مريم" متعجبةً: ولكن هذا حلمٌ سيفقدُك بهجةَ الحياة وما بها من تشويق.

فقال لها: ربَّما، ولكنَّني متأكدٌ أنَّ مجالاتِ إبداعي ستصبحُ بلا حدودٍ لو عرفتُ المستقبلَ ووجدتُ رابطًا يربطني به.

فقالت له بصوتٍ عذبٍ به إعجابٌ واضح: إنَّك "نادر" فعلًا !

فقال بضحكةٍ خفيفةٍ: شكرًا جزيلًا.

أرادت "مريم" أن تدخلَ بشكلٍ أكبرٍ وأعمقٍ إلى عقلِه وثقافتِه، فسألته: ما أفضلُ كتابٍ قرأته؟

فأجاب "نادر": لا أُصنِّفُ نفسي كقارئٍ جيدٍ ولكنَّني أحبُّ رواياتِ "نجيب محفوظ" و"إحسان عبد القدوس"، وأنتِ؟

فأجابت "مريم": أحبُّ رواياتِهما كثيرًا وأنا من قُرَّاءِ "يوسف إدريس" و"نهاد سيريس" أيضًا.

فعقَّب "نادر": أنا أيضًا أعشقُ كلَّ ما يكتبانه.

فعقبت: يبدو أنَّنا متفقين كثيرًا في ما نقرأه، ماذا عن السينما؟ هل أنت من محبي السينما؟

فأجاب "نادر": نعم، أنا من عُشَّاقِها في الواقع، وأحبُّ كثيرًا الأفلامَ التي تناقشُ قصصَ الحريَّةِ وسِيَر الناجحين وكذلك قصصَ الخيالِ العلمي.

فعلقت "مريم": أمَّا أنا فأهتمُّ كثيرًا بقصصِ الإنسانِ ومشاعرِه وأفكارِه، وكذلك قصص العشق والغرام وبالذات تلك التي تم تصويرها في مدن ذات طبيعة خلابة.

ثمَّ التقط "نادر" منها طرفَ الحديث وسألها: ما أكثرُ المدنِ التي تحبينها؟

فأجابت: "روما"، وأنت؟

فقال: "سان فرانسيسكو"، إنَّها تُمثلُ جسرًا إلى المستقبلِ ومركزًا مهمًّا لمعظمِ شركاتِ التكنولوجيا الحديثة، وأنتِ لماذا تفضلين روما؟

فقالت: لقد كانت عاصمةَ العالمِ القديمِ لفترات، وعمارتُها رائعةٌ وذات طرازٍ فريدٍ ولا زالت بعضُ آثارها تصارعُ الزمنَ في شموخٍ وإباء.

استمرت محادثتهما معًا نحو ثلاثِ ساعاتٍ كاملة، انتقل فيها الحوار من الكتبِ إلى السينما ثمَّ إلى المسلسلاتِ وبعده إلى فنونِ عصرِ النهضةِ، ثمَّ إلى التاريخِ القبطيِّ المصريِّ، ثمَّ التاريخ الإسلامي ثمَّ الإعلام، وبعد ذلك الأزياء والموضة والمدن التي زاراها مثل "القاهرة"، "شرم الشيخ"، "روما"، "ڤيينا"، "بوخارست"، و"اسطنبول". في أثناء ذلك كانت المسافةُ بين عقليهما، و من ثَمَّ قلبيهما، تنكمشُ تدريجيًّا حتى تكاد تتلاشى.

وعلى الرغمِ من اختلافِهما في الجنسيةِ والدينِ وبعدهما المكاني، إلَّا أنَّه بدا وكأنَّ هناك رابطٌ ما يربطُهما ببعضٍ ويزدادُ قوةً ورسوخًا مع مرورِ الوقتِ واستمرارِ الحوار، كان نقاشهما في

أيّ موضوعٍ بمثابةِ خطوةٍ إضافيةٍ يقتربانها عقليًّا وقلبيًّا وتزيلُ أيَّ أثرٍ لأيّ اختلافاتٍ بينهما بما في ذلك بعدُ المكان، كان نبضُ قلبيهما يتسارعُ كلَّما طال الحوارُ، فكلَّما ازداد عمقُ النقاشِ وتفاهَمَت الآراءُ تحرَّكَت المشاعر. حتى في مواضيعِ الخلافِ بينهما كان كلٌّ منهما يحترمُ الآخر ويحترمُ الاختلافاتِ ويحترمُ أيضًا أسباب هذه الاختلافات.

بعد فترةٍ انتبه "نادر" إلى شيءٍ ما فقال: ألا تلاحظين شيئًا؟ إنَّنا نتحدثُ منذُ ما يزيدُ عن ثلاثِ ساعاتٍ كاملةٍ دون أن ينقطعَ الخطُّ مطلقًا، وحتى دون أن ينقطعَ بشكلٍ تلقائيٍّ بعد ساعةٍ من الاتصال مثلما يحدثُ دائمًا.

فقالت "مريم": هذا صحيح، وقد لاحظتُ أنا شيئًا آخر، فإلى الآن نحن لم نتبادل أرقامَ هواتفنا فلو انقطع الاتصالُ الآن ربَّما لن نتمكنَ من الاتصالِ ببعضِنا مرةً أخرى، أعطني رقمَ هاتفِك المحمولِ وسأتصلُ بك من الفندق، فأعطاها "نادر" رقمَه، فقالت له: ابقَ معي على الخط وسأتصلُ بك من الهاتفِ الأرضيّ للفندق، ثمَّ حاولت الاتصالَ به فجاءَ الردُّ آليًّا عن طريقِ الشبكةِ بأنَّ هذا الرقمَ غير مكتملٍ. فأخبرته بما سمعت.

فاستغرب وقال لها: حسنًا أعطني أنتِ رقمَ هاتفِك المحمول وسأتصلُ أنا بك، فأعطته رقمَها وحاول الاتصالَ بها من هاتفِ الفندقِ هو الآخر، فجاء ردُّ الشبكةِ بأنَّ هذا الرقمَ غيرُ موجودٍ بالخدمة.

تأكد كلٌّ منهما من الآخرِ بأنَّ خدمةَ الانتظارِ تعملُ عنده وكان ردُّ كلٍّ منهما بالإيجاب، فازداد تعجبُهما، فطلبت منه الرقمَ الأرضيَّ للفندقِ ورقمَ غرفتِه وحاولت الاتصالَ به من الفندقِ الذي تقيمُ هي فيه، وبالفعلِ رد موظفُ الاستقبالِ وقام بتحويلِها إلى رقمِ الغرفةِ التي أعطاها لها "نادر" ففوجئت بشخصٍ آخرٍ يرد عليها، فوجئ "نادر" أيضًا بما حدث حيثُ كان معها على الهاتفِ يستمعُ ويتابع.

فسألته غاضبةً: هل أنت فعلًا في هذا الفندق؟

فأقسم لها أنَّه فعلًا في الفندق.

فسألته: فبماذا تفسرُ ما حدث؟

فقال لها: لا أعرف ولا أفهم، أعطني أنتِ الرقمَ الأرضيَّ لفندقِك وسأتصلُ أنا بكِ.

فأعطته الرقمَ وقام بالاتصال، وتكرَّر معه ما سبق وأن حدث معها، فازدادا تعجبًا من كلِّ ما يحدث.

ثمَّ قال "نادر" بسخرية: لا يمكنُ ونحن في عام ٢٠١٣ ألَّا نتمكن من الاتصال ببعضِنا مع وجودِ كلِّ هذه التكنولوجيا ووسائلِ الاتصال، وبالمناسبة...

أنا أنظرُ الآن إلى الكمبيوترِ الخاصِّ بي وقد لاحظت أن البريد الإلكتروني الذي أرسلتُه لك لم يصل بعد أن حاولتُ أكثرَ من خمسِ مرات.

فأجابت "مريم": نعم لقد لاحظتُ أنَّ رسالتَك التي أخبرتني أنَّك أرسلتها وبها صورٌ لبعضِ لوحاتِك لم تصل حتى الآن.

ثمَّ قالت بصوتٍ كما لو كانت قد انتبهت لشيءٍ ما: ماذا قلت؟!!

فقال "نادر": كنت أقولُ لا يمكن على الرغمِ من كلِّ وسائلِ الاتصالِ المتاحة...

فقاطعته متسائلةً: لا لا، لقد قلت أنَّنا في أيِّ عام؟

فأجاب "نادر" متعجبًا: لقد كنتُ ألفتُ النظرَ إلى مقدارِ السخريةِ في كلِّ هذا الذي يحدث، لذلك أشرتُ إلى أنَّنا في عام ٢٠١٣ ومع

كلِّ وسائلِ الاتصالِ الحديثةِ المتاحة فكيف لا نستطيعُ الاتصالَ ببعضِنا إلَّا عن طريقِ هذه المكالمةِ الصدفة.

فصمتت "مريم" لثوان دون أن تنطقَ بأيِّ همسةٍ ثمَّ سألته: هل لديك جرائدٌ أو مجلاتٌ في غرفتِك؟

فوجئ "نادر" من السؤالِ ثمَّ قال: نعم، ولكن لماذا؟

فقالت له: سأطلبُ منك طلبًا، خذ أيَّ جريدةٍ يوميةٍ باللغةِ العربيةِ أو الإنجليزيةِ واقرأ لي العنوانَ الرئيس.

فتساءل "نادر" متعجبًا: وهل هذا وقتُ جرائدٍ وعناوين؟! فألحَّت عليه "مريم"، وبالفعل أخذ إحدى الجرائدِ اليوميَّةِ الشهيرةِ، وقرأ العنوانَ الرئيس والمتعلق بالرئيسِ الروسيِّ "بوتين" ولقائِه برئيسِ الوزراءِ التركيِّ "إردوغان" بخصوصِ الأزمةِ السورية، فوجئت "مريم" وصمتت تمامًا ثمَّ سألته عن اسمِه كاملًا، فأعطاها "نادر" اسمَه رباعيًّا وأخبرها عن اسمِه الذي يشاركُ به في المعارضِ وهو عبارةٌ عن اسمِه الأول واسمِه الرابع (وهو اسم العائلة). وبعد برهةٍ قالت له "مريم": لقد أدخلتُ اسمَك للتوِّ على أحدِ محركاتِ البحثِ الشهيرةِ فهل تعرفُ ماذا وجدت؟

فقال لها "نادر" بصوتٍ به بعضُ الاندهاش: لم أفكر يومًا أن أفعلَ هذا، ما الذي وجدتِه؟

فقالت له: "نادر نور" يقيمُ معرضَه السنويَّ الحاديَ عشر في "مدريد"، ثمَّ أكملت: يقيمُ الفنانُ التشكيليُّ المصريُّ المعروفُ "نادر نور" معرضَه السنويَّ الحاديَ عشر في العاصمةِ الأسبانيةِ "مدريد"، حيثُ اعتاد "نادر" إقامةَ معرضِه في مثلِ هذا التوقيتِ من كلِّ عامٍ منذُ عام ٢٠١٣.

فتعجب "نادر" قائلًا: ما الذي تقصدينه؟ وما معنى هذا الكلام؟

فقالت "مريم": أنا لا أعلمُ إن كان هذا حقيقيٌّ أم لا، ولكنَّني أريدُ أن أخبرَك أنَّني في عام ٢٠٢٣!!

لم يستوعب "نادر" ما سمعه ثمَّ قال متعجبًا: كيف هذا؟ وكيف يمكنُ أن يحدثَ هذا؟

فقالت له: الأزمةُ السوريةُ انتهت منذُ سنواتٍ و"بوتين" حاليًا ليس الرئيس الروسي و"إردوغان" توفيَ منذُ عامين!!

فقال لها: هل هذه خدعةٌ ما؟ هل هذا مقلب؟ أو مزاحٌ من أيِّ نوع؟ وفجأةً ازداد وميضُ البرقِ وازدادت حدَّةُ الرياحِ واشتدت

الأمطارُ في الخارجِ وخفت صوتُ المحمولِ تدريجيًّا ثمَّ انقطع الخط.

حاول الاتصال مرةً أخرى بنفسِ الرقمِ العشوائيّ وبكلِّ الأرقامِ التي أعطتها له وباءت كلُّ المحاولاتِ بالفشل، فألقى بجسدِه على السريرِ وظل يحاولُ أن يفكرَ فيما حدث خلال الساعاتِ الثلاثِ الماضية فلم يصل إلى نتيجة!! إلَّا أنَّ ما بدا له كأنَّه وميضُ حبٍّ خفت فجأةً دونما أملٍ في إعادةِ التوهجِ من جديد، ولكنَّه لسببٍ لا يعرفُه أحس ببقاءِ الرابطِ الذي تكوَّن بينهما وجمعهما في هذه المكالمةِ الغريبةِ ذات الثلاث ساعات. وإن كان قد افترض ثمَّ أقنع نفسَه مع مرورِ الزمنِ أنَّ كلَّ ما حدث عبارةٌ عن حلمٍ جميلٍ مرّ كطيف ثمّ تلاشى، ربَّما بسببِ سعادتِه بالنجاحِ المعقولِ لأول معارضِه في أوروبا.

مرَّت الأيامُ والسنوات وفي عام ٢٠٢٣، وفي نفس التوقيتِ الربيعيّ وفي نفسِ الفندق، خرج "نادر" من البابِ الرئيس بعد أن أمضى في جناحِه عدَّة ساعاتٍ، ارتاح فيها من عناءِ أربعة أيامٍ أمضاها في حضورِ ومتابعةِ معرضِه السنويّ الحادي عشر للفنّ التشكيليّ الذي يقيمه في "مدريد".

بعد تجاوزِه للبابِ الرئيسي وجد سيارةَ الأجرةِ التي طلبها في انتظارِه، استقلَّها واتَّجه لحضورِ عشاءٍ نظَّمه بعضُ الفنانين والنقاد من أصدقائِه في "مدريد" في أحدِ المطاعمِ العريقةِ ذات الطرازِ الأندلسيّ وذلك احتفالًا بنجاحِ معرضه. استمر العشاءُ -مع ما تخلَّله وأعقبه من حواراتٍ وأحاديث- إلى ما بعدِ منتصفِ الليلِ بساعات.

بعدها غادر "نادر" المطعم متجهًا إلى الفندق، وبعد نزولِه من سيارةِ الأجرةِ التي استقلها وقبل دخولِه من البابِ الرئيسيّ للفندق، لاحظ وجودَ سيارةِ أجرة أخرى تصلُ إلى الفندقِ بعد وصولِه بثوان، وقبل دخولِه من بابِ الفندقِ دفعه الفضولُ لأن يختلسَ بعض النظراتِ إلى تلك السيارة، فوجد فتاةً شقراء جميلةً تنزلُ منها، واتَّجهت مباشرةً -بعد أن دفعت الحسابَ للسائق- إلى بابِ الفندق، فأحس بشيءٍ ما نحوها لم يفهمه ولم يعرفه، تقدمت هي باتجاه بابِ الفندقِ في حين توقَّف هو بجانبِ البابِ ولم يدخل منه، اقتربت منه خطوةً خطوة ثمَّ وقفت أمامه، حدَّقت فيه ثمَّ سألته بلهجةٍ شامية: السيد "نادر نور"؟

نـزل عليـه السـؤالُ مفاجئًـا، اسـتدعى صـوتُها العـذبُ مـن مخـازنِ ذاكرتـه ذكريـاتٍ جميلـةً عذبـةً لأجمـلِ ثـلاثِ سـاعاتٍ في عمـرِه، اسـتدعت لهجتُهـا الشـاميَّةُ ذكريـاتِ حلـمٍ جميـلٍ تمنى ألَّا يسـتيقظ منـه أبـدًا، أيقـظ وجهُهـا الملائكيُّ الـذي يـراه لأول مـرةٍ الـرابطَ الغريـبَ الـذي تكـوَّن بينهمـا منـذُ عشـر سـنواتٍ كاملـة ولـم ينقطع حتى الآن، فأجابها بهدوء: نعم أنا "نادر"، وأنتِ "مريم"؟ مضبوط؟

فأجابت: نعم أنا "مريم"، فور أن انقطع الاتصالُ بيننا منذُ ستِّ سـاعاتٍ ذهبـتُ مباشـرةً إلى محطـةِ القطـارِ الرئيسـةِ في "ڤيينـا" حيثُ أنَّ المطاراتِ مغلقـةٌ لسـوءِ الأحـوالِ الجويَّةِ واسـتقليت أول قطـارٍ متجـهٍ إلى "مدريـد"، وهـو قطـارٌ سـريعٌ لا يتوقـف إلَّا في "باريس" فقـط، وقـد وصلت منـذ ثلث سـاعةٍ تقريبًـا إلى محطـةِ القطاراتِ الرئيسة في "مدريد".

فقال لها "نادر" بصوتٍ يعكسُ فرحةً وسعادة: نعم أعرف "قطارَ أوروبا السـريع" الـذي يسـيرُ بسـرعةِ خمسـمائة كيلـومتر في السـاعةِ فكثيرًا ما ركبته، لم أتخيل يومًا طيلة السـنواتِ العشرة الماضيةِ أن نلتقي ثانية.

فقالت له بلهجةٍ كلها سعادةٌ ممزوجةٌ برغبةٍ عارمةٍ في التعلق به: وأنا لم أتخيل لحظةً واحدةً أن أفقدك، أريدك أن تحكيَ لي كلَّ شيءٍ عنك، كل ما فعلته في السنواتِ العشرة الماضية، معارضك، أسفارك، قراءاتك، مشاهداتك السينمائية، عملك في مجال الإعلان، كلَّ شيء.

فصمت "نادر" لثوان، وفكر أنَّ كلَّ ما تتحدثُ عنه "مريم" حاليًا قد أصبح من الماضي، و"مريم" نفسها لم تعد من المستقبلِ ولكنَّها أصبحت حاضرًا، لقد فقدت "مريم" بالنسبةِ له تميزَها في كونِها رابط بينه وبين الزمنِ القادمِ، وهو فيما يبدو ذلك الرابط الذي ألهمه طوال السنواتِ العشرة الماضية، ثمَّ قال: بالتأكيد، ولكن بعد أن أُعرفَك على زوجتِي وأولادي!

نزلت عليها الجملةُ كالدُّش البارد في هذا الجوِّ الربيعيِّ الذي يميلُ للبرودةِ في ما بعد منتصفِ الليلِ بساعاتٍ، وأُلجم لسانُها وتوقفت الكلماتُ على شفتيها، ثمَّ سألته بصوتٍ باكٍ حزين خرج منها بصعوبة: هل تزوجت؟ وأنجبت أيضًا؟

فقال لها بهدوءٍ وحزن: نعم منذ سنواتٍ تزوجت من...

لم تواصل الاستماعَ لما يقولُه ونزلت عدَّةُ دمعاتٍ من عينيها ثمَّ قالت: مع السلامة.

استدارت لتستقلَّ نفسَ سيارةِ الأجرةِ التي جاءت بها، وقبل ركوبِها السيارة اختلست نظرةً إليه فوجدته واقفًا حزينًا متسمرًا مكانه كما هو، وانعكس بعضُ الضوءِ المحيطِ ببوابةِ الفندقِ على وجهه فأظهر دمعاتٍ تنزلُ من عينيه، ونظرا إلى بعضِهما لثوان مرَّت عليهما كسنوات، أدركا أنَّ حلمَهما الجميلَ الذي استمر في عقلِه عشر سنواتٍ واستمر في قلبها بضع ساعاتٍ قد انتهى إلى غيرِ رجعة. ثمَّ انطلقت سيارةُ الأجرة، ورحلت "مريم"، وبعد دقائق صعد إلى جناحه الخالي... فهو لم يكن متزوجًا وليس لديه أولاد!!

obeikan.com

"الحقيقة والمكتبة"

في زمنٍ ما في المستقبل، وبعد عشراتِ السنين، وصل العلمُ إلى مداه، ووصل التقدمُ الحضاريُّ للبشريةِ إلى ذروتِه، اكتشافاتٌ واختراعاتٌ لم تكن لتخطرَ على البال، يسرٌ وسرعةٌ في الانتقالِ بين الدولِ والقاراتِ وعبر الفضاءِ والمحيطاتِ واليابسة، وسهولةٌ فائقةٌ في الاتصالِ بين البشرِ جعلتِ العالمَ كشارعٍ صغيرٍ وليس فقط كقريةٍ صغيرة، ووسائلُ رفاهيةٍ غير محدودةٍ تجعلُ حياةَ الإنسانِ أيسرَ وأسهلَ وبلا مشاكلٍ أو تعقيدات.

في ذلك العصرِ وفي وسطِ تلك الأجواء كانت إحدى الجامعاتِ المصريةِ العريقةِ تحتفلُ بتخريجِ دفعةٍ جديدةٍ من كليةِ الآداب، وكان من بين أوائلِ قسمِ الفلسفة: "عارف عبد العليم"، وهو من

أب وجدٍ لأبيه مصريين، ولكنَّ والدتَه من بلادِ الشامِ ومن أصولٍ شاميةٍ عراقيةٍ مختلطة.

وبعد انتهاءِ حفلِ التخرج، عاد "عارف" إلى بيتِه وقال لوالدِه: أنَّه يفكرُ في أن يقبلَ التعيينَ كمعيدٍ في الكليةِ على الرغمِ من ضعفِ الدخلِ المادي لتلك الوظيفة، فشجعه والدُه -وقد كان رجلَ أعمالٍ شديدَ الثراء- على أن يستكملَ طريقَ العلمِ كيفما يريد ولا يقلق مطلقًا من الناحيةِ المادية.

فكر "عارف" في التعيينِ كمعيد وكذلك فيما قاله والدُه، إلَّا أنَّه وبعد يومين من التفكيرِ اتخذ قرارًا جريئًا وغيرَ تقليدي، قال لوالدِه أنَّه سيرفضُ التعيينَ كمعيدٍ لأنَّه لا يريدُ قيودًا إداريةً أو فكريةً عليه، ولكنَّه سيسافرُ إلى أكبرِ مكتباتِ العالم، وهي مكتبةُ "اسطنبول"، وسيتفرغُ تمامًا للقراءةِ والاطلاعِ وسيقرأُ كلَّ ما بها من كتب!

فقال له والدُه: لا مانع لديَّ على الإطلاقِ، ولكن هذه المكتبة تحتوي على ما يزيدُ عن السبعةِ ملايين كتابًا بكلِّ لغاتِ العالمِ وفي كلِّ مجالاتِ المعرفة، وبها تقريبًا نسخةٌ من كلِّ كتابٍ موجودٍ على وجهِ الأرض، سوف تحتاجُ إلى ما يزيد عن مائة عامٍ لقراءةِ

كلِّ تلك الكتب، وفي الغالبِ لن تتمكنَ من الانتهاءِ منها طيلةَ حياتك.

فقال "عارف": أعلمُ يا والدي، لكنَّني سأبدأُ ولن أتوقفَ حتى أصلَ إلى ما أريد.

فسأله والدُه: وإلامَ تريدُ أن تصل؟

فأجابه "عارف": الحقيقة. أريدُ أن أعرفَ شيئًا واحدًا؛ ما هو الإنسانُ؟! وما هي حقيقتُه؟!

حزم "عارف" حقائبَه واتَّجه إلى عاصمةِ الدنيا والثقافةِ في ذلك العصر، "اسطنبول". اشترى شقةً مقابلةً للمكتبة، اختارها في أحدِ المباني المجهزةِ بالخدمةِ الفندقية لأنَّه كان يريدُ أن يتفرغَ تمامًا للبحثِ والدراسةِ والقراءة. حوَّل له والدُه الثري عدَّةَ ملايين من الدناراتِ الإسلامية - وهي العملةُ الإسلاميةُ الموحَّدة المستخدمة من بلادِ "إيران" شرقًا وحتى "تونس" غربًا، ومن "تركيا" و"البوسنة" شمالًا وحتى "اليمن" جنوبًا -، وذلك لكي يشعرَه بالأمانِ الماديِّ ويساعدَه على التفرغِ لتحصيلِ العلم.

بعد وصولِه بعدَّةِ أيام، وبعد أن اشترى الشقةَ وجهَّزها، ذهب إلى مكتبةِ "اسطنبول" ليدفعَ قيمةَ اشتراكٍ مدى الحياةِ في المكتبة.

كانت المكتبةُ تطلُّ على "مضيقِ البوسفور"، الجسر الدائم بين الشرقِ والغربِ جغرافيًّا وثقافيًّا، أما بنيانها فكان مهيبًا بحيثُ تشعرُ عندما تدخلُها بالرهبةِ والخشوعِ للعلم، فهي تقعُ على مساحةٍ هائلةٍ من الأرضِ، وبناؤُها هائل ضخم حيثُ تتكوَّنُ من عشرةِ طوابقٍ وكلُّ طابقٍ يحتوي على كلِّ المطبوعاتِ والكتبِ والوثائقِ والوسائطِ في مجالٍ معينٍ من مجالاتِ المعرفة، بحيث تضمُّ كلَّ معارفِ البشرِ الموجودةِ على ظهرِ الأرضِ منذُ خلق اللهُ الدنيا وحتى اللحظة.

وفي نفسِ توقيتِ سدادِه للاشتراكِ في المكتبةِ لاحظ وجود فتاةٍ محجبةٍ تبدو مثلَه في مقتبلِ العشرينات، وتقفُ أمام شباك سدادِ الاشتراكاتِ المجاورِ له وتدفعُ اشتراكًا مدى الحياةِ أيضًا. أخذ يتابعُها بعينيه وبعد أن انتهيا من سدادِ قيمةِ اشتراكاتِهما، حمله فضولُه إليها وبادرها قائلًا: لقد لاحظتُ أنَّكِ دفعتِ اشتراكًا مدى الحياةِ في المكتبة، فهل أنتِ باحثةٌ أم طالبةُ دراساتٍ عليا؟ ابتسمت ثمَّ أخذت شهيقًا وأجابته بهدوء: وهل أنت معتادٌ على سؤالِ كلِّ من يدفعون اشتراكًا في مكتبةِ "اسطنبول" عن وظائفِهم؟!

شعر بالحرجِ وأجابها: آسف، لقد دفعني الفضولُ لهذا السؤال، فقد قال لي الموظفُ المختصُّ أنَّه منذُ ثلاثةِ أعوامٍ لم يدفع أحدٌ اشتراكًا مدى الحياةِ في المكتبةِ، لكن اليومَ فقط جاءنا اثنان وفي نفسِ التوقيت، لذلك لم أتمالك نفسي ودفعني الفضولُ لسؤالِك.

فأجابته: لقد قال لي الموظفُ المختصُّ نفسَ الملاحظةِ أيضًا، عمومًا أنا لستُ طالبةَ دراساتِ عليا ولا باحثةً في أيَّةِ جهة، أنا فقط جئتُ هنا للاطلاعِ والقراءةِ فقد قرَّرتُ قراءةَ كل الكتبِ الموجودةِ في المكتبة!

فوجئ "عارف" من ردِّها وعقَّب قائلًا: رُبَّ صدفةٍ خيرٌ من ألفِ ميعاد، لقد جئتُ لنفسِ السبب.

ابتسمت قائلةً: هو يومٌ غريبٌ وصدفةٌ غريبةٌ ولكنَّها سارة.

صمتا لثوان ثمَّ انتبه إلى أنَّه لم يُعرِّفها بنفسِه فقال: عفوًا لم أعرفكِ بنفسي، أنا "عارف عبد العليم"، خريجُ كلية الآداب من قسمِ الفلسفة.

فردَّت قائلةً: أنا "إيمان عبد الخالق"، خريجةُ كليَّةِ أصولِ الدين.

فقال لها "عارف": أنا من "مصر".

فقالت له: لقد استنتجتُ ذلك من لهجتِك، أمَّا أنا فمن "الحجاز" أبًا عن جد.

فقال لها "عارف": إنَّ والدتي من أصولٍ شاميةٍ عراقيةٍ لذلك لي أقاربٌ في "بغداد" و"دمشق"، وضحك ضحكةً خفيفةً ثمَّ أضاف: أردت بذلك أن أشيرَ إلى أنَّني لستُ متعصبًا للمصريين.

فابتسمت "إيمان" قائلةً: لم أظن إطلاقًا أنَّك متعصب، أمَّا أنا فكلُّ عائلتي من "الحجاز"، إنَّنا نعيشُ هناك منذُ مئاتِ السنين.

ثمَّ سألته: لماذا تريدُ أن تقرأ كلَّ هذه الكتب؟

فأجاب: أريدُ أن أصلَ إلى الحقيقة.

فعقبَّت: إنَّه نفسُ السببِ الذي دفعني للقدومِ إلى هنا ومحاولة قراءةِ كلِّ هذه الكتبِ أيضًا، ولكن إلامَ تريدُ أن تصلَ تحديدًا؟

فقال لها: أريدُ أن أعرفَ ما هو الإنسانُ؟ وما هي حقيقتُه؟

فصمتت قليلًا ثمَّ قالت: أمَّا أنا فأريدُ أن أعرفَ ما هو المطلوبُ من الإنسان؟!

وبعد انتهاءِ التعارف، اتفقا على أن يبدآ القراءةَ معًا ومنذُ الغدِ وبنفسِ ترتيبِ الأدوارِ بدايةً من الطابقِ الأرضيِّ صعودًا حتى الطابق العاشرِ والأخير. كانت المكتبةُ مُقسمةً طبقًا لنظامِ

"ديـوي" العشـريّ، ويبلـغُ عـددُ طوابقِهـا عشـرةَ طوابـقٍ بحيـثُ يحتـوي كلُّ طابقٍ على الكتـبِ والمطبوعـاتِ والوثـائقِ والوسـائطِ الخاصةِ بمجالٍ معين من مجالات المعرفة.

في صـباحِ اليـومِ التـالي، وفي تمـامِ السـاعةِ الثامنـةِ التقى "عـارف" و"إيمـان" في الطابقِ الأرضي، وهـو الطابقُ الـذي يغطي مجـالاتِ المعرفـةِ المرتبطـةَ بالتـاريخِ والجغرافيـا والتراجم، وبـدآ القـراءة. كانـت الكتـبُ تُقـدَّرُ بمئـاتِ الألـوفِ وبكلِّ اللغـاتِ وأخـذا يقرآن كلَّ ما تقعُ عليه عيناهما، قسَّما الكتبَ فيما بينهما على أن يقـرآ يوميًّـا مـن السـاعةِ الثامنـةِ صـباحًا وحتى السـاعةِ الثامنـةِ مساءً، ثمَّ بعد ذلك يتناقشان فيما قرأه كلٌّ منهما بحيثُ يبحران في أكبرِ عددٍ ممكنٍ من الكتبِ وأوسع مجالٍ متاح من المعرفة.

اسـتغرق منهمـا الطـابقُ الأول مـا يقـربُ مـن سـتِ سـنواتٍ كاملـة، قـرآ فيهـا وعرفـا كلَّ شيءٍ عـن تـاريخِ الإنسـانِ وجغرافِيَّـةِ الأرضِ التي يعيشُ عليها الإنسانُ وتراجمِ مشاهيرِ بني الإنسان.

بعد أن انتهيا من قراءةِ كلِّ ذلك جلسا سويًّا وسألها "عارف":

هل وصلتِ إلى إجابةٍ لسؤالك؟

فأجابت: كلَّا، ولكن ممَّا قرأناه عرفتُ أنَّ كلَّ البشرِ يحاولون الوصولَ للحقيقةِ منذُ فجرِ التاريخِ وحتى الآن، ومن أجلِها فعلوا كلَّ ما قرأناه في التاريخِ من حروبٍ ومعاهداتٍ وسياساتٍ وخلافه.

فعقَّب "عارف": أجل، ومن الواضحِ أنَّهم مثلنا لم يصلوا للحقيقةِ بَعد!! لقد عرفنا كلَّ ما وصل إلينا عمَّا فعله الإنسانُ على مدارِ التاريخِ وسيرِ مشاهيرِ البشرِ الذين قادوا حركةَ التاريخِ وأنشؤوا الحضاراتِ، كما عرفنا خصائصَ الأرضِ التي عاش عليها النَّاسُ ومكوناتِها، وحركة البشر والتاريخ عليها، ولكن لم يذكر لنا أحدٌ ما هي حقيقة الإنسانِ الذي فعل كلَّ هذا؟!

فعقَّبت "إيمان": وبالتأكيد ليس المطلوبُ من الإنسانِ بناء كل هذه الحضاراتِ ثمَّ هدمها عن طريق الصراعات بينها.

وبعد ذلك اتَّجها إلى الطابقِ التالي، وهو المخصَّصُ للآدابِ، وأخذا يقرآن كلَّ إبداعاتِ الإنسانِ الأدبيةِ من شعرٍ ونثرٍ وقصةٍ وروايةٍ وخطبٍ ومسرحياتٍ وملاحمٍ بكل لغات العالم.

استغرق منهما ذلك ستَّ سنواتٍ أخرى، وبعد أن انتهيا من قراءةِ ومناقشةِ كل ذلك الإبداعِ الأدبيِّ للإنسانِ على مرِّ العصور،

جلسا سويًّا مرةً أخرى وسألت "إيمان": هل وصلتَ إلى إجابةٍ عن سؤالِك؟

فأجابها "عارف": لا، إنَّ إبداعاتِ الإنسان عجيبةٌ وغريبة وشديدةُ التنوُّعِ، وأغلبُها يشيرُ إلى أنَّ الإنسان يبحثُ عن شيءٍ ما لا يعرفُه ولا يزالُ يجهلُه، ربَّما في داخلِ روحِه، وربَّما في عقلِه، وقد يكونُ في خيالِه وربَّما يكونُ في تفاعلِه مع ذاتِه أو غيرِه من بني جنسِه أو غيره من مكوناتِ الطبيعةِ أو كل ذلك معًا، لكنَّه لا يزال يبحث ولم يصل بعد إلى إجابة.

فعقَّبت "إيمان":

نعم، وقد أعجبني كثيرٌ ممَّا قرأتُ على الرغمِ من بعضِ الشطحاتِ الفكريةِ التي قرأناها، وفي النهايةِ أجدُ نفسي متفقةً معك، لم أصل حتى الآن إلى إجابةٍ عن سؤالي، إنَّ كلَّ هذا الأدب قد ناقش كلَّ الأفكارِ والمواضيع ولكنَّني لم أصل إلى إجابةٍ تشفي غليلي، فهل المطلوبُ من الإنسانِ أن يحب؟ أن يساعدَ الغير؟ أن يفكرَ ويشعرَ ويبدع؟ ربَّما، ولكن لابد أن نستمر.

أخذا راحةً من القراءةِ لعدَّةِ أيام وذلك لإعادةِ ترتيبِ الأفكارِ والمشاعرِ والأحاسيس، فبعد اثني عشر عامًا من القراءةِ تتغيرُ

الكثيرُ من الأفكارِ والأحاسيسِ والمشاعرِ المرتبطةِ بالمواضيعِ محل القراءةِ وكذلك بالإنسانِ عمومًا.

بعد الراحة، اتَّجها إلى الطابقِ التالي والذي يحتوي على كلّ ما يتعلقُ بالفنونِ وإبداعاتِ الإنسانِ الفنيَّةِ من عمارةٍ ورسمٍ وتصويرٍ وموسيقى. أخذا يقرآن ويشاهدان ويسمعان كلَّ ما له علاقةٌ بالإبداعِ الفنيّ لبني البشرِ وكلَّ ما تمكَّنت البشريةُ من حفظِه وتسجيلِه من إبداعاتِها الفنيَّة. أصواتٌ تخاطبُ عقلَ الإنسانِ وأحاسيسه عن طريقِ أذنينه، ورسوماتٌ تخاطبُ عقلَه ومشاعرَه عن طريقِ عينيه، وأفلامٌ تخاطبُه عن طريقِ أذنيه وعينيه معًا، وكتاباتٌ متعلقةٌ بكلِّ صنوفِ الإبداعِ الفنيّ قرآها ليحاولا سبرَ أغوارِ النفسِ البشريةِ قبل وعند وبعد لحظاتِ إبداعاتِها الفنية.

استغرقا ستَّ سنواتٍ أخرى إلى أن انتهيا من دراسةِ كلّ ما له علاقةٌ بالفنونِ في مكتبةِ "اسطنبول". ثمَّ جلسا سويًّا ليناقشا نتيجةَ ما اطلعا عليه في السنواتِ الستِّ السابقةِ خصوصًا وفي السنواتِ الثماني عشرة عمومًا.

فسألها "عارف": هل وصلت إلى إجابةٍ لسؤالِك يا "إيمان"؟

فأجابت: لا، فبعد ستِّ سنواتٍ من قراءةِ ودراسةِ ومشاهدةِ كل إبداعاتِ الإنسانِ الفنيَّةِ - غير الأدبية - لا زلتُ غيرَ قادرةٍ على الإجابةِ عن سؤالي. لقد لاحظتُ أنَّ إبداعاتِ الإنسانِ الفنيَّةَ مثلُها كمثلِ إبداعاتِه الأدبيةِ، تشيرُ بوضوحٍ إلى بحثِه المستمرِّ عن شيءٍ ما وإن كانت الإشارةُ في الفنونِ أوضحَ من الآدابِ بشكلٍ عام.

فالرسوماتُ تكادُ تصرخُ بالبحثِ عن إجابةٍ لسؤالٍ ما لا يعرفُ الإنسانُ كيف يسألُه في أحيان كثيرة، كما يبدو أنَّه لا يزال يحاولُ العثور على شيءٍ ما في أعماقِه أو في الطبيعةِ باستخدامِ الموسيقى وأصواتِها، أو لعله يحاولُ محاكاةَ صراعاتِ نفسِه وطموحاتِها أو حركةِ الطبيعةِ وأصواتِ تفاعلاتِها.

أمَّا فيما يتعلق بإبداعاته المسجلة على شكلِ أفلامٍ أو مسلسلاتٍ أو خلافه، فهو أحيانًا يحاولُ السردَ وأحيانًا أخرى يحاولُ السؤالَ وأحيانًا ثالثةً يحاولُ جاهدًا الإجابةَ ولكن دون أن يصلَ إلى إجابةٍ شافية. أنا أيضًا لم أصل بعد لإجابة شافية، فهل المطلوب من الإنسان هو الإبداع بكل صنوفه فنيًا وأدبيًا؟ وهل هذا كاف؟!

استمع "عارف" إلى كلامِها ثمَّ صمت لبرهةٍ وقال: من الواضحِ أنَّ الحقيقةَ الوحيدةَ التي وصلنا إليها حتى الآن هي أنَّ الإنسانَ يبحثُ عن الحقيقةِ منذُ فجرِ التاريخِ، وأنَّه لم يصل إليها حتى الآن.

فابتسمت "إيمان" ثمَّ قالت: نعم.

فعقَّب "عارف": ولكنَّني ازددتُ رغبةً في متابعةِ رحلتي البحثية، فأنا الآن أريدُ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى معرفةَ حقيقة الإنسان، حقيقة العقلِ والروحِ القادران على خلقِ هكذا إبداع بهذه الروعةِ في التنوعِ والعمقِ والسطحيةِ والجرأةِ والخوفِ والحدَّةِ والهدوءِ في نفسِ الوقت.

كان كلٌّ منهما قد بلغ نحو الأربعين عامًا، لكنَّهما لم يفقدا قط رغبتَهما في مواصلةِ البحث، أخذا راحةً قصيرةً لعدَّةِ أيَّامٍ ثمَّ التقيا بعدها وفي نفسِ الميعادِ وانتقلا إلى الطابقِ التالي في المكتبة، الطابقُ المخصَّصُ للعلومِ التطبيقيةِ من هندسةٍ وزراعةٍ وتصنيعٍ واقتصادٍ منزلي.

أخذا يقرآن كلَّ ما يتعلقُ بإنجازاتِ الإنسانِ في العلومِ التطبيقيةِ، وأدركا مدى صعوبةِ وطولِ الرحلةِ التي قطعتها البشريةُ منذُ عصرِ

الإنسانِ البدائيّ وحتى وصلت البشريةُ لهذه الدرجةِ من التطوُّر الهندسيّ والتصنيعيّ والزراعي.

استغرق منهما هذا الطابقُ ستَّ سنواتٍ أخرى ألمَّا فيها بكلِّ ما أنجزه وأبدعه الإنسانُ في مجالِ التطبيقِ العمليّ للمعرفة، ازداد احترامُهما لعقلِ الإنسانِ وقدرته على الإنجازِ والابتكارِ العلميّ بعد أن كانا قد عرفا قدرتَه على الإبداعِ الأدبيّ والفنيّ، وبعد أن انتهيا من هذا الطابقِ جلسا سويًّا كعادتِهما ليتناقشا فيما وصلا إليه.

سألته "إيمان": هل وصلتَ إلى إجابةٍ عن سؤالِك؟

فأجاب "عارف": كلَّا على الإطلاق، فكلُّ ما قرأناه حتى الآن متعلقٌ بتاريخِ الإنسانِ وإبداعاتِه وإنجازاتِه، لكنَّني لا أحسُّ أنَّني أدركُ بعد ما هو الإنسان؟ ما هذا الكائنُ القادرُ على أن يفعلَ ويبدعَ ويطبقَ ويصنعَ كلَّ هذه الأمجادِ والإخفاقاتِ التاريخية؟ أحس أنَّني وبعد أربعةٍ وعشرين عامًا من البحثِ لا زلت أحومُ حول روحِ الإنسانِ وعقلِه وأحاسيسِه ومشاعرِه وإنجازاتِه وإبداعاتِه وإخفاقاتِه، لكنَّني أبدًا لم ألج إلى أعماقِ ذاته وكينونتِه.

فقالت "إيمان": وكذلك أنا لم أصل بعد إلى إجابةٍ عن سؤالي، فحتى الآن لم أعرف على وجهِ اليقينِ المطلقِ ما المطلوبُ من الإنسانِ في هذه الدنيا. هل المطلوبُ منه الإبداع فنيًّا وأدبيًّا؟ أم تصنيعيًّا وزراعيًّا؟ وهل المطلوبُ منه التعامل مع الروح؟ أم الانهماك في التعاملِ مع العقل؟ هل المطلوب منه التميُّز في التعاملِ مع إنتاج عقلِه وروحِه؟ أم التميُّز في التعامل مع المادة؟

اتَّفقا على مواصلةِ رحلة البحث، وفي صباحِ اليومِ التالي اتَّجها إلى المكتبةِ وصعدا إلى الطابق الذي يحتوي على كلِّ ما له علاقةٌ بالعلومِ البحتة من رياضياتٍ وفلكٍ وفيزياءٍ وكذلك النباتات.

كعادتهما قسَّما الطابقَ إلى قسمين وأخذ كلٌّ منهما قِسمًا وكان كلٌّ منهما يعرضُ على الآخرِ ما قرأه وينقلُ إليه ما تعلَّمه. أخذتهما الدهشةُ من قدرةِ العقلِ البشريِّ العجيبةِ على سبرِ أغوارِ علومٍ مثلَ الرياضياتِ والفيزياءِ والنباتات. ازدادت دهشتُهما من حجمِ المعلوماتِ التي وصل إليها الإنسانُ في هذه المجالات ثمَّ بعد ذلك اتجاه الإنسانِ إلى سبرِ أغوارِ الفضاءِ وتعمقه في دراسةِ علومِ الفلك.

وبعد ستِّ سنواتٍ كانا قد انتهيا من قراءةِ كلِّ ما له علاقةٌ بالعلوم البحتة، وكعادتِهما جلسا ليتناقشا فيما وصلا إليه، سألها "عارف": هل وصلتِ إلى إجابةٍ لسؤالك؟

أجابت "إيمان": كلَّا على الإطلاق، كلُّ ما وصلتُ إليه في السنواتِ الستِّ الأخيرة هو أنَّ للإنسانِ قدراتٌ عقليةٌ وذهنيةٌ غيرُ محدودةٍ وهو قادرٌ على استخدامِها في مختلفِ العلومِ للوصولِ إلى نتائجٍ مبهرة، لكنَّ كلَّ هذا لا يجيبُ عن سؤالي مطلقًا، حتى إذا أضفناه إلى ما قرأناه ودرسناه منذ أن جئنا إلى هنا. هل المطلوبُ من الإنسانِ الإبداع أم التطبيق؟

فصمت "عارف" قليلًا ثمَّ قال: أنا وإن كنتُ لم أصل بعد إلى إجابةٍ عن سؤالي إلَّا أنَّني ازددتُ احترامًا لعقلِ الإنسان، ذلك العضوُ الصغيرُ القادرُ على التعلُّمِ والبحثِ والإبداعِ بلا حدودٍ وبلا نهاية. وبإصرارٍ أكبر وبعزيمةٍ لا تلين قرَّرا الاستمرارَ في رحلةِ البحث.

بعد استراحةٍ لمدَّةِ شهر، التقيا ثمَّ انتقلا إلى طابقٍ آخرٍ وهو الخاصُ باللغات، وبدآ رحلةَ القراءةِ والبحثِ في اللغات. اندهشا كثيرًا من عددِ اللغاتِ الحيةِ وغيرِ الحيةِ التي استعملها

ويستعملُها الإنسانُ في التعبيرِ عن أفكارِه وفي التواصلِ مع غيرِه، وازداد اندهاشُهما من حجمِ الاختلافاتِ بين هذه اللغات. فإذا كان الإنسانُ في مكانٍ ما يشبهُ تمامًا من ناحيةِ الخصائصِ الجسديةِ أيَّ إنسانٍ آخرٍ في أيِّ مكانٍ آخر، فهل الاختلافاتُ الروحيَّةُ والذهنيَّةُ والعقليَّةُ والمتعلقة بالمشاعرِ والأحاسيسِ فيما بين البشرِ يمكنُ أن تكونَ إلى هذا الحدِّ الذي ينتجُ عنه لغات مختلفة تمامًا لا تمتُّ لبعضِها بصلة؟ شجعتهما هذه الاختلافاتُ على الاستمرارِ في القراءةِ والبحثِ والاطلاعِ حتى انتهيا من مجالِ اللغاتِ في نحوِ ستةِ أعوامٍ أخرى.

وفي نقاشاتِهما التي عادةً ما تلي الانتهاءَ من كلِّ مجالٍ من مجالاتِ المعرفةِ سألها "عارف": هل وصلتِ إلى إجابةٍ لسؤالِك؟ فأجابت "إيمان": لا، لازلتُ أبحثُ، فقد تعلَّمنا خلال السنواتِ الستِّ السابقة اللغاتَ التي يعبرُ بها الإنسانُ عن نفسِه ويتواصلُ بها مع غيرِه، وتبيَّنَّا قدرتَه الفائقةَ على ابتكارِ وإنشاءِ الألفاظِ والمفرداتِ والجمل والتراكيب اللغوية وفقًا لتفاعلِ عقلِه وأحاسيسِه مع بيئتِه ومجتمعِه المحيط، لكنَّني لازلتُ بعيدةً عن إجابةِ سؤالي، لازلتُ بعيدةً عن الحقيقة، فهل المطلوب من

الإنسان هو الإبداع؟ أم التطبيق؟ أم التعبير عنهما؟ و لماذا أصلا يفعل الإنسان كل ذلك؟!

فعلَّق "عارف": وأنا أيضًا لا زلتُ بعيدًا، فالقدرةُ على التعبيرِ عن الذاتِ والأفكارِ والتفاعلِ مع الغيرِ والمحيط والمتمثلةُ في اللغات لا توصلني بشكلٍ صريحٍ إلى معرفةِ ما الإنسانُ وما كينونته، إنَّما عرفنا الآن كيف يعبرُ وما أوعيةُ أفكارِه، ولكنَّني متفائلٌ وعندي إحساسٌ بأنَّنا نقترب.

في صباحِ اليومِ التالي اتَّجها إلى المكتبةِ وصعدا إلى طابقٍ جديدٍ وهو الطابقُ الذي يحتوي على العلومِ الاجتماعيةِ من اجتماعٍ وسياسةٍ واقتصادٍ وقانون. قرآ بنهمٍ شديدٍ كلَّ ما تمسكه أيديهما وتقعُ عليه أعينهما من كتبٍ ومطبوعاتٍ، فقد كان هذا المجالُ المعرفيُّ هو أولَّ المجالاتِ التي تدرسُ منهجيَّةَ وكيفيَّةَ حركة الإنسانِ داخل إطارِ المجموعاتِ التي ينتمي إليها، ولا تكتفي بالسردِ كالتاريخِ، أو الرصد كرصدِ الإبداعِ الأدبيّ والفنيّ، أو رصد الإبداع والإنجاز العلمي سواء كان بحثيًّا أو تطبيقيًّا والذي في غالبِه الأعم فرديُّ النزعةِ والطبيعةِ والكيفية. إنَّ هذا المجالَ يحتوي على كمٍّ هائلٍ من المعلوماتِ والدراساتِ المتعلقةِ بالإنسانِ، ليس كفردٍ ولكن كجزءٍ من مجموع، وبكيفيَّة تنظيمِ

السلوكِ الجمعيّ والتحكُّمِ فيه ووضعِ ضوابطٍ له واكتشافِ خصائصِه.

استغرقت رحلةُ القراءةِ والبحثِ والدراسةِ في هذا المجالِ ستَّ سنواتٍ أخرى، وبعد الانتهاءِ من كتبٍ ومطبوعاتِ الطابقِ السابعِ جلسا يتناقشان فيما وصلا إليه.

سألت "إيمان": لقد كنتَ تقرأُ بنهمٍ شديدٍ في هذا المجالِ، فهل وصلتَ إلى إجابةٍ لسؤالِك؟

أجاب "عارف": لا، لكنَّني أحسُّ أنَّني بدأتُ أكوِّنُ صورةً عن ماهيةِ الإنسان، وهذه الصورةُ تزدادُ وضوحًا مع الوقت، وقد ازدادت وضوحًا بشكلٍ كبيرٍ عندما بحثنا ودرسنا حركةَ الإنسانِ وعلاقاتِه داخل المجموعات، وقدرته الفائقة على التواصل مع الآخرين واجتهاداته في تنظيم حركة حياته بين الآخرين، ولكنَّني لم أصل لإجابةٍ متكاملةٍ حتى الآن، لم أعرف بعد هل الإنسانُ هو كائنٌ اجتماعيٌّ أم منفرد؟ هل هو صانعٌ للأحداثِ أم أنَّ الأحداثَ هي التي تصنعُه وتصنعُ انفعالاتِه؟

فعلَّقت "إيمان": هذا صحيحٌ، فأنا أحسُّ أنَّ الصورةَ في ذهنِي بدأت تتفتَّحُ لكنَّها أيضًا لم تكتمل، فلا أعرفُ هل المطلوبُ الأكثرُ

أهميةً من الإنسانِ هو التفاعلُ مع نفسِه أم مع محيطِه؟ هل إطاعةُ عقلِه؟ أم مجتمعِه؟ أم قلبه؟

كانا قد بلغا نحوَ الرابعة والستين، وبدت عليهما آثارُ تقدُّمِ العمرِ لكنَّ نهمَهما للمعرفةِ كان أقوى من أيّ يأسٍ أو تعبٍ أو تقدمٍ في العمر. كان الطابقُ التالي هو المتعلقُ بالدياناتِ لكنَّهما اتَّفقا على تجاوزِه حاليًا على أن يكونَ هو المحطَّةَ الأخيرةَ في رحلةِ البحثِ، نظرًا لأنَّهما اعتقدا أنَّ قراءةَ الأديانِ بعد الإلمامِ بكافَّةِ جوانبِ الفكرِ والإبداعِ والإنجازِ والعلمِ البشريِّ ستكونُ أكثرَ فائدةً وأعمقَ مضمونًا وأشملَ رؤية.

بعد تجاوزِهما طابق الديانات، صعدا إلى الطابقِ التاسع وهو الذي يحتوي على كتبٍ ومطبوعاتِ الفلسفةِ وعلمِ النفسِ والمنطقِ والأخلاق. درسا وبحثا في علمِ الفلسفةِ والبحثِ عن الحكمةِ وأصلِها، وكذلك في كيفيَّةِ التفكيرِ المنطقيِّ ودراساتِ المنطقِ وكيفيَّةِ الوصولِ إلى الاستنتاجاتِ باستخدامِ المعطيات، ثمَّ دراساتِ الأخلاقِ بفروعِها المختلفةِ، وأيضا كل ما له علاقةٌ بمحاولاتِ الإنسان البحث داخل نفسِه وخصائصِها ومميزاتِها

وعيوبِها وأمراضِها وقدراتِها اللامحدودة وحدودِ وأصولِ تعاملاتِه مع الغير.

ست سنواتٍ أخرى أمضياها في البحثِ والدراسةِ والاطلاعِ ثمَّ جلسا في نهايتِها لمناقشةِ ما وصلا إليه. بدأ "عارف" بالسؤال: هل وصلتِ إلى إجابةٍ لسؤالِك؟

فأجابت: لا، ولكنَّني أعتقدُ أنَّ هذا المجالَ مرتبطٌ أكثر بسؤالِك وليس سؤالي.

فعلق "عارف": نعم هذا صحيحٌ، فكلُّ ما قرأناه في السنواتِ الستِّ الماضيةِ يبحثُ في محاولةِ الإجابة عن ماهيَّةِ الإنسان وذلك في محاولةٍ للوصول إلى الحقيقة، ولكنَّني لم أصل لإجابةٍ شافيةٍ وإن كانت الصورةُ تزدادُ وضوحًا، فعقلُ الإنسانِ بشِقَّيه الواعي واللاواعي هو المحركُ الرئيسيُّ لكلِّ الحضارةِ البشريَّة، وقد عرفنا الكثيرَ عنه في السنواتِ الستِّ الماضيةِ، ولكن تبقى أجزاءٌ غيرُ واضحة من الصورة، فهل الإنسانُ عقلٌ فقط؟ وكيف يتعاملُ الإنسانُ مع عقلِه اللاواعي؟ وهل العقل اللاواعي هو الروحُ أو النَّفس؟

فعلَّقت "إيمان": معكَ حق، ولكنَّني أعتقدُ أنَّنا نسيرُ في الاتجاهِ الصحيح، فالعقلُ في النهايةِ هو الذي سيحددُ ما المطلوبُ من الإنسان، وقد عرفنا الكثيرَ عن العقل.

في صباحِ اليومِ التالي صعدا إلى الطابقِ الذي يليه، وهو الطابقُ الذي يحتوي على المعارفِ العامةِ والحاسباتِ والمكتباتِ والموسوعاتِ والمعلوماتِ والأعمالِ العامة. كانت الطبيعةُ الشيِّقةُ للكتبِ وتنوعها وتناولها لمعارفٍ متعددةٍ ومتنوعةٍ حافزًا ومشجعًا لهما على الاستمرارِ في البحثِ والاطلاعِ بنفسِ الهمَّةِ والنشاطِ اللذان بدآ بهما منذُ سنواتِ الشباب. قرآ وعرفا كلَّ ما يمكنُ معرفتُه عن الحاسباتِ الإلكترونية والموسوعاتِ بمعلوماتِها الهائلةِ والمتنوعة وكذلك علوم المكتبات.

بعد ستِّ سنواتٍ تقريبًا انتهيا من هذا المجالِ المعرفيِّ، وعندما جلسا للحوارِ اتَّفقا على أنَّ هذا الجزءَ أوضح كثيرًا من الأمورِ المُهمَّةِ وجمع كثيرًا من المعلوماتِ المتناثرةِ، ووضع أساسًا ممتازًا مع ما سبق من مجالاتٍ للوُلوجِ إلى المجالِ الأخيرِ من مجالاتِ المعرفةِ وهو الديانات. فقد كان هذا الجزءُ هو القطعةُ ما قبل الأخيرةِ من القطعِ اللازمةِ لتكوينِ الصورة المتكاملة.

كانا قد بلغا من العمرِ ما يقربُ من السادسةِ والسبعين، أفنيا عمرَهما في رحلةِ بحثٍ شاقَّةٍ وقاسيةٍ ربَّما يكونُ لها بدايةٌ ولكن ليس لها بالضرورةِ نهايةٌ معروفةٌ. اتَّفقا على أن يأخذا شهرًا من

الراحةِ لترتيبِ الأفكارِ وراحةِ العقلِ والجسدِ قبل أن يبدآ المرحلةَ الأخيرةَ من رحلةِ البحثِ عن الحقيقة.

بعد الانتهاءِ من الراحةِ، اتَّجها إلى الطابقِ الثامنِ في المكتبةِ وإن كان هو العاشرُ والأخيرُ في رحلةِ بحثِهما، وهو الذي يحتوي على كلِّ ما يتعلقُ بالديانات. اطَّلعا على كلِّ الدياناتِ على وجهِ الأرضِ سواء كانت دياناتٍ سماويةً أو وضعية، درسا كلَّ ما يتعلقُ بمحاولاتِ الإنسانِ المستمرَّةِ لفهمِ علاقتِه بالقوة العليا المتحكمةِ في مصيرِه وقدرِه، وكذلك محاولاتِه لفهمِ مغزى رحلتِه في هذه الدنيا ومصيره بعد الموت. وكيف يتعاملُ الإنسانُ مع الأديانِ ونظرته لها، وما الذي يطلبُه من الدينِ وما الذي تُطالبه به الدياناتُ المختلفة، وما المقدَّسُ وما غيرُ المقدس، وما هو كلامُ الله وما هو كلامُ الرسلِ وأين الخطوطُ الفاصلة، وما هي الخطوطُ الفاصلةُ بين الدينِ وبين فهمِ رجالِ الدينِ للدين.

استمرت رحلتُهما في هذا الجزءِ عشرةَ أعوامٍ كاملة. وبعد نهايةِ الرحلةِ بكافَّةِ مراحلها، جلسا على أحد المقاهي المُطلَّة على مضيقِ "البوسفور"، وبدت عليهما آثارُ الزمنِ والأعوامِ الستَّةِ

والثمانين التي أمضيا منها أربعة وستين عاما داخل جدرانِ المكتبةِ وبين صفحاتِ الكتب.

نظر "عارف" إلى المياهِ التي تتحرَّكُ ببطءٍ وسأل "إيمان": هل وصلتِ إلى إجابةٍ لسؤالِك؟

فأجابت: نعم، فالحقيقةُ المطلقةُ في الدنيا هي في معرفةِ ما المطلوبُ من الإنسانِ، والمطلوبُ منه معرفةُ كلام الله واتباعُه ليس أكثر.

فصمت "عارف" ثمَّ قال: أمَّا أنا فحتى الآن لم أصل للحقيقة!!

فقالت له: لأنَّك تسألُ السؤالَ الخاطئ، فليس دورُنا محاولةَ معرفة ماهيَّتنا، ولكن دورنا محاولة معرفة ما المطلوبُ منَّا، فإذا عرفناه فعلناه، ووصلنا للحقيقة.

فعلَّق "عارف": وكيف نعرفُ ما هو مطلوبٌ منَّا دون أن نعرفَ ماهيَّتنا؟! الحقيقةُ المطلقةُ هي أن نعرفَ ماهيَّتنا، ما حقيقةُ جسدِنا وعقلِنا ونفسِنا وروحِنا، وما هي حقيقةُ اتِّصالِنا بالقوة العليا، وما الفرقُ بين الواقعِ من ذلك كله وبين إدراكِنا نحن لهذا الواقع، وبعد ذلك سنعرفُ تلقائيًّا ما هو المطلوبُ منَّا.

ثمَّ أضاف: من الواضحِ أنَّكِ اكتفيتِ بما وصلتِ إليه، أمَّا أنا... فسأستمرُّ في البحث.

obeikan.com

"الكاميرا!"

كانت الساعةُ تقتربُ من الحادية عشرة مساءً والغالبيةُ العظمى من المتاجرِ أغلقت أبوابَها ومعظمُ الشوارعِ هادئةً تمامًا ولا تكادُ تسمعُ فيها إلَّا صوتَ الصمتِ، فأهالي مدينة "براج" - عاصمةِ جمهوريةِ التشيك- ليسوا معتادين على السهرِ مثلَ أهالي مصر المحروسة.

كان الجوُّ باردًا، ولكن ليسَ شديدَ البرودةِ، ممَّا شجَّع "ثابت" على أن يستغلَ الطبيعةَ الآمنةَ للمدينةِ في أن يستمرَّ في التجولِ -وحيدًا- في شوارعِ المدينةِ ليلًا، مستمتعًا بالبرودةِ اللذيذةِ، وبالهواءِ النقيِّ غيرِ الملوثِ والنسيمِ العليلِ والشوارعِ الجميلةِ المنسقةِ والمنظمة. وفي أثناءِ سيرِه وصل إلى أحدِ الميادين ثمَّ انعطف منه إلى أحدِ الشوارعِ الضيقةِ ضعيفةِ الإضاءةِ، فلاحظ

ضوءًا خافتًا -بخلافِ أضواءِ أعمدةِ الإنارة - قادمًا من نهايةِ الشارعِ، فتساءل: هل هو لأحدِ المتاجرِ الصغيرةِ؟ ولكن كيف؟ فالمتفرضُ أن تكونَ كلُّ المحلاتِ -هنا- مغلقةً في هذا الوقتِ من الليلِ! فأخذه الفضولُ واتَّجه إلى مصدرِ الضوء، وعندما وصل وجده متجرًا صغيرًا لا تتجاوزُ مساحتُه ثلاثةَ أمتارٍ عرضًا وأربعةَ أمتارٍ طولًا، كما وجد رجلًا كبيرًا في السنِّ تبدو عليه آثارُ العمرِ الطويلِ نسبيًّا وأيضًا آثارُ الحكمةِ والهدوءِ، كما بدت عليه مظاهرُ الثراءِ من ماركةِ الملابسِ التي يرتديها وكذلك نوعِ العطرِ الذي يستخدمُه، بالإضافةِ إلى ماركةِ الساعةِ حولَ معصمِه والهاتفِ المحمولِ الموضوعِ أمامَه على مكتبِه الصغير. جال "ثابت" ببصرِه في المتجرِ فلاحظ أنَّه متجرٌ متخصصٌ في بيعِ قطعِ الأثاثِ واللوحاتِ والمقتنياتِ القديمةِ عمومًا.

رحَّب به الرجلُ المسنُّ وعندما وجده لا يتحدَّثُ اللغةَ التشيكية سأله باللغةِ الإنجليزية عن جنسيتِه.

فأجابه "ثابت": أنا طبيبٌ مصريٌّ، وفي زيارةٍ سريعةٍ إلى "براج" تستغرقُ نحوَ أسبوعٍ لحضورِ أحدِ المؤتمراتِ الطبيةِ.

فسأله الرجلُ عن تخصُّصِه الطبيِّ.

فأجابه "ثابت": أنا جراحُ مخٍ وأعصاب.

وبدورِه سأله "ثابت" عن نشاطِ المتجرِ وطبيعةِ المقتنياتِ الموجودةِ والمعروضةِ للبيعِ.

فأجابه الرجل: أنا في الأصلِ أستاذٌ جامعيٌّ وتخصُّصي هو الفيزياء، ولكنَّني تقاعدتُ منذُ عشرين عامًا، وتفرغتُ بعد تقاعدِي لممارسةِ الهوايةِ التي طالما عشقتها، وهي تجارةُ المقتنياتِ القديمةِ والنادرة.

وهنا سأله "ثابت": ولماذا تقاعدت مبكرًا؟

فضحك الرجلُ ضحكةً خفيفةً وقال له متعجبًا:

مبكرًا؟! لقد تقاعدتُ عندما بلغتُ الخامسةَ والسبعين، وأنا حاليًا على وشكِ إتمامِ الخامسة والتسعين عامًا وعيدُ ميلادي بعد أيامٍ قليلةٍ... جدًا!

بدت ملامحُ الدهشةِ على وجهِ "ثابت" فقد بدا الرجلُ فعلًا متقدمًا في السنِّ ولكنَّه أبدًا لا يبدو في الخامسةِ والتسعين من عمرِه، ربَّما يبدو في الستين أو الخامسةِ والستين على أقصى تقديرٍ ولكنَّه لا يبدو في التسعيناتِ على الإطلاق.

لاحظ الرجلُ علاماتِ وملامحَ الدهشةِ على وجهِ "ثابت" فقال له: إنَّه النظامُ الصارمُ في الأكلِ والشربِ وفي مواعيدِ الاستيقاظِ والنومِ، وفي أسلوبِ الحياةِ الصحيِّ بشكلٍ عامٍ هو الذي يحافظُ لك على صحتِك.

فكر "ثابت" في إجابةِ الرجلِ على سؤالِه الذي لم يسأله، وبدت الإجابةُ منطقيةً إلى حدٍ كبيرٍ ولكنَّها أبدًا لم تشفِ غليلَه، فقد أحسَّ "ثابت" أنَّ هناك شيئًا ما مخفيًّا وأنَّ هناك سرًّا ما وراءَ ما يراه.

أخذ "ثابت" يتجاذبُ أطرافَ الحديثِ مع الرجلِ ويجولُ ببصرِه في المتجرِ ومحتوياتِه، فشاهد على الحائطِ عدَّةَ شهاداتٍ علميةٍ في مجالِ الفيزياءِ تظهرُ عليها تواريخُ الحصولِ على كلِّ شهادة، لم يركز "ثابت" في قراءةِ الأسماء المدونةِ على الشهاداتِ ولكنَّه افترض أن الشهاداتِ تخصُّ الرجلَ التشيكي بما أنَّها معلقةٌ في متجرِه، وأدرك -بعد أن قام بعملياتٍ حسابيةٍ سريعةٍ بعقلِه- أنَّ الرجلَ لا يكذبُ فيما يتعلقُ بعمرِه أو بعملِه السابق، أخذا يتجاذبان أطرافَ الحديثِ لمدَّةِ ربعِ ساعةٍ تقريبًا.

تحدَّثا خلالها عن عدَّةِ مواضيعٍ متعلقةٍ بالسياسةِ والفنِّ إلى أن سأله الرجلُ: ما هي هوايتك المفضلة يا "ثابت"؟

فأجاب "ثابت": التصويرُ الفوتوغرافي.

فصمت الرجلُ قليلًا ثمَّ سأله: وهل تفضلُ استخدامَ كاميراتٍ رقميةٍ حديثةٍ أم كاميراتٍ تقليدية؟

فأجاب "ثابت" بأنَّه يفضلُ استخدامَ الكاميراتِ الرقميةِ الحديثةِ لدرجةِ أنَّه يقومُ بشراءِ الكاميرا الأحدثِ كل ستةِ أشهرٍ تقريبًا.

فعلَّق الرجلُ المسنُّ قائلًا: أنا عندي هديةٌ لك، ثمَّ قام بفتحِ أحدِ الدواليبِ التي يخزِّنُ فيها مقتنياتِ وبضائعَ المتجرِ، وهنا لاحظ "ثابت" وجودَ العديدِ من الكاميراتِ القديمةِ في هذا الدولابِ، فأخذ الرجلُ إحدى هذه الكاميراتِ وأعطاها لـ"ثابت" قائلًا: هذه هديةٌ منّي إليك، إنَّها كاميرا قديمةٌ صنعتُها بنفسي منذُ عشرين عامًا عندما كنتُ في آخرِ عامٍ دراسيٍّ لي كأستاذٍ للفيزياء، كلُّ شيءٍ فيها صناعةٌ يدويةٌ خالصة... صناعتي!

حاول "ثابت" أن يدفعَ ثمنَ الكاميرا أو أن يعتذرَ عن عدم قبولِ الهديةِ إلاَّ أنَّ الرجلَ المسنَّ أصر علي هديتِه، فأخذ "ثابت" الهديةَ شاكرًا للرجلِ حسنَ ضيافتِه ومعاملتَه الطيبةِ وهديتَه.

وقبلَ أن يغادرَ "ثابت" سأله الرجلُ المسنُّ سؤالًا خاطفًا: كيف لاحظت أنَّ المتجرَ مفتوحٌ رغمَ أنَّ الشارعَ ضيقٌ وإضاءتَه ضعيفة،

كما أنَّ إضاءةَ المتجرِ خافتةٌ للغايةِ كما ترى؟ أضف إلى ذلك أنَّ كلَّ المحلاتِ والمتاجرِ - تقريبًا - من المفترضِ أن تكونَ مغلقةً في هذا التوقيت... فكيف افترضت إمكانيةَ أن يكونَ المتجرُ مفتوحًا أصلًا؟

لم يجد "ثابت" إجابةً شافيةً للسؤالِ - سواءً للرجلِ أو لنفسِه - فأجاب باقتضابٍ: ربمَّا الصدفةُ أو الحظُّ أو القدر.

فابتسم الرجلُ قائلًا: عمومًا لقد تشرفتُ بمعرفتِك يا صديقيَ المصريَّ، وأتمنَّى أن نظل على اتصالٍ، ثمَّ أعطاه بطاقةَ التعريفِ التجاريةِ الخاصةِ به.

فأخذها "ثابت" شاكرًا ثمَّ وضعها - متعجلًا - في جيبِه مباشرةً دونَ أن ينظرَ إليها، وأخذ هديتَه وودَّع الرجلَ وانصرف مسرعًا متجهًا إلى الفندقِ ليستعدَّ للسفرِ ورحلةِ العودةِ للقاهرةِ، فقد كان موعدُ إقلاعِ الطائرةِ بعدَ ثلاثِ ساعات.

وبعد عدَّةِ ساعاتٍ وصل "ثابت" إلى مطار "القاهرة"، وكان في انتظارِه أحدُ أصدقائِه لكي يقلَّه إلى المنزل، وفي الطريقِ طلب منه صديقُه أن يستعدَّ للاحتفالِ الليلةَ، لأنَّ مجموعةً من الأصدقاءِ قد أعدُّوا - حسب الاتفاق - حفلةً بمناسبةِ عيدِ ميلادِ "ثابت"

الخامسِ والثلاثين، وستكونُ في منزلِ أحدِ الأصدقاءِ الذين يسكنون بالقربِ من منزلِه، وسيحضرُها مجموعةٌ صغيرةٌ من الأصدقاءِ المقربين وذلك بناءً على طلبِ "ثابت" نفسه حيثُ أنَّه لا يحبُّ الحفلاتِ المزدحمة.

وفي المساءِ، وبعد أن استعد "ثابت" للذهابِ إلى حفلةِ عيدِ ميلادِه، وقبل أن يهمَّ بالخروجِ من منزلِه - الذي يعيشُ فيه وحيدًا - تذكر الهديةَ التي أهداه إيَّاها الرجلُ التشيكيُّ المسنُّ صاحبُ المتجرِ الصغير، فقال في نفسِه أنَّها فرصةٌ جيدةٌ لتجربةِ الكاميرا يدويةِ الصنع، وبالفعلِ أخذ الكاميرا معه ليجربَّها ويلتقطَ بها بعضَ الصورِ للحفلة.

كانت الحفلةُ على نطاقٍ ضيقٍ حيثُ بلغ عددُ الحاضرين سبعةً فقط كلُّهم من أصدقاءِ "ثابت" المقربين، وكان هؤلاء الأصدقاءُ السبعة هم كلُّ من يعرفهم "ثابت" عن قربٍ، فقد كان شخصًا انطوائيًا بطبعِه لا يجيد فنونَ الاتصالِ مع الآخرين، ودائرةُ معارفِه وعلاقاتِه محدودةٌ للغاية.

استمرت الحفلةُ ساعتين فقط، واستمتع بها كلُّ الحاضرين وبالأخصِّ "ثابت"، فقد كان لا يرى أصدقاءَه إلَّا في مثلِ هذه

المناسبات، وذلك نظرًا لانشغالِه في عملِه من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى بسببِ شخصيتِه غيرِ الاجتماعية. وفي أثناءِ الحفلةِ مارس "ثابت" هوايتَه المفضلةَ حيثُ استخدم الكاميرا لالتقاطِ الكثيرِ من الصورِ له ولأصدقائِه ولنفسِه مع ووسط أصدقائِه.

عاد "ثابت" إلى منزله في منتصفِ الليلِ تقريبًا، وعلى الرغمِ من الإرهاقِ الكبيرِ الذي كان عليه من جرَّاءِ السفرِ ثمَّ تفريغِ الحقائبِ، ثمَّ الاستعدادِ للذهاب إلى حفلةِ عيدِ الميلادِ، ثمَّ الحفلةِ نفسها، إلَّا أنَّه - ولسببٍ ما لا يعرفُه - أخذه الفضولُ أن يقومَ فورًا بتحميضِ الصورِ التي التقطها بالكاميرا. كانت الكاميرا تقليديةً - وليست رقميةً - وذلك يستلزمُ تحميضَ الصورِ بالطريقةِ التقليديةِ القديمةِ عن طريقِ غمرِها في سائلِ الإظهارِ، ونظرًا لأنَّ "ثابت" يمارسُ هوايةَ التصويرِ منذُ ما قبل انتشارِ الكاميراتِ الرقميةِ، فقد كان لديه غرفةٌ صغيرةٌ في شقتِه بها وسائلُ التحميضِ والإظهارِ التقليديةِ القديمةِ.

وبالفعلِ بدأ "ثابت" عمليةَ تحميضِ وإظهارِ الصورِ التي التقطها بالكاميرا التي أهداه إياها الرجلُ التشيكيُّ المسنُّ. وفور أن بدأت الصورُ في الظهورِ ظهرت معها علاماتُ التعجُّبِ والإندهاشِ على

وجهِـه، وكلَّمـا ازدادت درجـةُ وضـوحِ الصـورِ زادت معهـا هـذه العلاماتُ على وجهِه، وظهرت معها عشراتُ الأسئلةِ التي يحتاج إلى من يجيبُه عنها!

للوهلةِ الأولى بدا أنَّ الصورَ تظهرُ أشخاصًا غير الذين تمَّ تصويرُهم وذلك في أماكنٍ غيرِ تلك التي تمَّ أخذُ الصورِ فيها، كما أنَّ قطعَ الأثاثِ ومحتوياتِ الأماكن التي تظهرُ في الصورِ هي غيرُ تلك التي كانت موجودةً وقت التقاطِ الصورِ! نظر "ثابت" مليًا إلى الصورِ ودقق فيها مرَّاتٍ ومرَّات، وأعاد تحميضَها مع زيادةِ درجةِ الإضاءةِ والتكبيرِ ليتمكن من الحصولِ على أوضحِ رؤيةٍ ممكنة، فاكتشف أنَّ الأشخاصَ الموجودين في الصورِ يشبهون إلى حدٍ كبيرٍ أصدقاءَه ولكنَّهم أكبرُ سنًّا، نظر إلى الوجوهِ مرارًا وتفحصها مليًّا وتمعن فيها كثيرًا فوجد أنَّ أحدَ الموجودين في الصورِ يشبهه ولكنَّه يبدو أكبرَ سنًّا بنحوِ خمسةِ عشر أو عشرين عامًا. ألجمت المفاجأةُ لسانَه وأوقفت عقلَه عن التفكيرِ، ومكث ما يقربُ من ساعتين كاملتين لا يستطيع أن يتمالكَ نفسَه.

بعد مرورِ هاتين الساعتين قرر "ثابت" أن يجربَ الكاميرا مرةً أخرى ولكن هذه المرةُ على نفسِه فقط، فوقف أمامَ عدَّةِ مرايا

داخلَ المنزلِ والتقط لنفسِه عدَّةَ صورٍ ثمَّ قام بتحميضِ الصورِ الجديدةِ بأعلى درجةِ إضاءةٍ وتكبيرٍ ممكنين، ثمَّ استخدم ماسحًا ضوئيًا لإدخالِها إلى الحاسبِ الآلي، ثمَّ قام أيضًا بإدخالِ كلِّ صورِ الحفلةِ إلى الحاسبِ الآلي، وبعد ذلك استخدم أحدَ البرامجِ المتطورةِ في معالجةِ الرسومِ والصورِ وذلك لتكبيرِ الصورِ مرةً أخرى مع تحسينِ درجةِ الإضاءةِ والوضوحِ إلى أعلى درجةٍ ممكنة. ثمَّ بعد ذلك جلس يشاهدُ الصورَ مرةً أخرى ولكن بعد أن ازدادت الصورُ وضوحًا، وازداد هو هدوءًا وقلَّ توترُه، وأصبح أكثرَ قدرةً على التركيزِ والتحليلِ والاستنتاج.

بدأ بمشاهدةِ صورِ الحفلةِ فلاحظ أنَّ كلَّ الموجودين في الصورِ هم من كانوا في الحفلةِ ولكنَّهم في الصورِ يبدون أكبرَ سنًّا، كما لاحظ أنَّ بعضَ قطعِ الأثاثِ التي تظهرُ في بعضِ الصورِ هي نفسُها التي كانت موجودةً في منزلِ صديقِه مضيفِ الحفلة، ولكنَّها في الصورِ أكثرُ تقادمًا منها في الحقيقةِ. كما كانت هناك صورٌ أخرى للحاضرين جميعًا ولكنَّها تبدو في أماكن أخرى اعتادوا التجمُّعَ فيها، وهي أماكن يعرفُها جيدًا وإن كانت تبدو في الصورِ مختلفةً عن الحالةِ التي يعرفُها عليها حاليًا. وبعد ذلك

أخذ يشاهدُ الصورَ التي صورها لنفسِه فاكتشف أنَّ الصورَ كلَّها تظهرُه هو - وليس أيُّ شخصٍ آخرٍ - ولكنَّها تظهرُه أكبرَ سنًّا وأكثرَ شيبًا بدرجاتٍ مختلفةٍ ومتفاوتة، فاستنتج أنَّ الصورَ تظهره في مراحلٍ مختلفةٍ من عمرِه القادم، إلَّا أنَّه عندما وصل إلى آخرِ صورةٍ أصيب بالصدمةِ من هولِ المفاجأةِ التي نزلت عليه كالصاعقة، حيثُ أنَّه شاهد في هذه الصورةِ رجلًا شديدَ الشبهِ بالرجلِ التشيكيّ الذى أهداه الكاميرا!

تمعَّن في الصورةِ مرةً ثانيةً وثالثةً فاكتشف أنَّه ليس مجرد رجلٍ شديدَ الشبهِ به، بل أنَّ الصورةَ تظهرُ تحديدًا الرجلَ التشيكيَّ نفسه واقفًا أمامَ المرآةِ في بيتِه هو! ذهب راكضًا إلى غرفةِ المكتبِ، فتح الملفَ الذي يحتفظُ فيه ببطاقاتِ التعريفِ التجاريةِ وأخذ يبحثُ عن البطاقةِ التي أعطاه إيَّاها الرجلُ التشيكيُّ، وفورَ أن وجدها نظر مباشرةً إلى الاسمِ المكتوبِ عليها، ففوجئ بأنَّ الاسمَ المكتوبَ عليها -بأحرفٍ لاتينيةٍ- هو "د/ ثابت راضي"... إنَّه اسمُه!! لم يستوعب عقلُه ما يحدث، اتَّجه مسرعًا إلى الكاميرا وأخذ يقلِّبُ فيها ويتفحصُها بتمعُّن، فوجدها كاميرا عاديةً وإن كانت مصنوعةً بحرفيةٍ وإتقانٍ شديدين، ولكن ليس

بها أيُّ شيءٍ غريبٍ أو غيرِ معتادٍ بالنسبةِ للكاميرات. نظر مرةً أخرى إلى بطاقةِ التعريفِ التي أعطاه إيَّاها الرجلُ محاولًا العثورَ على أيةِ وسيلةِ اتصالٍ به فلم يجد مكتوبًا على البطاقةِ إلَّا اسمَه واسمَ المتجرِ، بحث على الانترنت عن ترجمةٍ لاسمِ المتجرِ المكتوبِ باللغةِ التشيكية، فوجد أنَّ أقربَ ترجمةٍ هي: "المستقبلُ هو الحاضرُ زائدًا الطموحَ والتغيير". لم يفهم شيئًا من كلِّ ذلك واستغرب أن يكون هذا اسمَ المتجرِ، ولكنَّه عاد وقال في نفسِه: وما هو الشيءُ الطبيعيُّ أو الاعتياديُّ الذي حدث لي منذُ قابلتُ ذلك الرجلَ في "براج"؟ لا شيء... فكلُّ ما حدث منذُ ذلك الوقتِ غيرُ طبيعي، فلماذا أنتظر أن يكون اسمُ المتجرِ اعتياديًّا طبيعيًا؟!

أخذ يتفحَّصُ الصورَ مرةً أخرى بمزيدٍ من التأني، وجد نفسَه في إحدى الصورِ يتعلمُ اللُّغةَ الألمانيَّةَ في أحدِ الفصولِ الدراسيةِ، وفي صورةٍ أخرى يتعلمُ اللُّغةَ التشيكية، لم يفهم لذلك سببًا ولا معنى، فهو قد تعلم الإنجليزيةَ بصعوبةٍ كبيرةٍ وكان دائمًا يستصعبُ ويرفضُ فكرةَ تعلُّم لغة أخرى. وفي صورةٍ أخرى شاهد نفسَه يسافرُ على ظهرِ يختٍ كان اسمُه مكتوبًا عليه، وتعجَّب من هذا أيضًا فهو لا يحبُّ البحرَ ولا يحبُّ ركوبَ السفن

واليخوت كما أنَّه لا يجيدُ السباحةَ أصلًا، فضلا عن أنَّ إمكانيَّاته الماديةَ أبعدُ ما تكون عن شراءِ مثل هذا اليخت. وفي صورةٍ تاليةٍ -كان يبدو فيها أكبرَ عمرًا بكثير- شاهد نفسَه واقفًا وإلى جوارِه سيدةٌ تبدو في نهايةِ الأربعيناتِ من عمرِها، وبينهما صبيٌّ صغيرٌ- شديدُ الشبه به - ربَّما يكون في بدايةِ سنواتِ المراهقةِ، يبدو وكأنَّه تزوج وأنجب، فازداد تعجُّبُه لأنَّه كان دائمًا يرفض فكرةَ الزواجِ والارتباطِ والإنجاب. وفي الصورةِ الأخيرةِ ظهر وكأنَّه يتسلمُ جائزةً في حفلٍ ضخمٍ مهيب، فقام بتكبيرِ الصورةِ عدَّةَ مراتٍ حتى أصبح قادرًا على قراءةِ اسمِ الجائزةِ، فوجد أنَّها جائزةُ "نوبل"! كان وَقْعُ المفاجأةِ عليه كبيرًا، وتسارعت أنفاسُه وازدادت سرعةُ دقاتِ قلبِه، ثمَّ تمالك نفسَه وقام بتكبيرِ الصورةِ مرةً أخرى ومن زاويةٍ مختلفةٍ حتى يتمكن من قراءةِ مجالِ التخصصِ الذي حصل فيه على الجائزةِ، فازادت دهشتُه وتعجُّبُه عندما اكتشف أنَّها جائزةُ "نوبل" في الفيزياء! فسأل نفسَه متعجِّبًا: لماذا الفيزياء وليس الطب؟ وكيف يُعقلُ حدوثُ ذلك؟ إنَّه لم يعرف في حياتِه مجالَ دراسةٍ أو عملٍ إلَّا الطب! وسيحصلُ في غضونِ عامٍ على شهادةِ الدكتوراه في طبِّ وجراحةِ المخِّ والأعصابِ، بل إنَّه لم يقرأ

في حياتِه كتابًا واحدًا في الفيزياءِ بخلافِ الكتبِ المدرسيَّةِ، حيثُ أنَّه لم يكن يحب هذه المادةَ وكان شديدَ الخوفِ من امتحاناتِها. لم يفهم شيئًا ولم يستوعب عقلُه كلَّ ما حدث ويحدث.

عند هذه اللحظةِ اتخذ قرارًا فوريًّا بالسفرِ مرةً أخرى إلى مدينةِ "براج" لمقابلةِ هذا الرجلِ، ليحاولَ أن يفهمَ منه ما الذي يحدثُ وما معنى ما تظهرُه الصورُ. وفورًا دخل على الموقعِ الإلكترونيّ الخاصّ بإحدى شركاتِ الطيرانِ وحجز تذكرةَ السفرِ ثمَّ قام بحجزِ غرفةٍ في أحدِ الفنادقِ، وفي غضونِ بضعِ ساعاتٍ كان في غرفتِه في أحدِ فنادقِ "براج".

ترك حقيبتَه في الفندقِ وذهب مسرعًا إلى الشارعِ الضيقِ الذي يقعُ في آخرِه المتجرُ الصغيرُ حيثُ قابل الرجلَ المسنَّ الغامض. كانت الساعةُ الرابعةَ عصرًا وكانت كلُّ المحلاتِ والمتاجرِ مفتوحةً وتعمل، اتَّجه مباشرةً إلى المتجرِ وفور أن دخل هناك وجد فتاةً في نحوِ العشرين من عمرِها، جال ببصرِه سريعًا داخلَ المتجرِ وتفقد بعينيه محتوياتِه بشكلٍ سريعٍ خاطف، فإذا بها تقريبًا نفسُ المحتوياتِ التي وقعت عليها عيناه منذُ يومين فتأكد بأنَّه لم يكن يتخيلُ أو يحلمُ أو يهذي.

سألها: لقد كنتُ هنا منذُ يومين وقابلتُ رجلًا كبيرًا في السنِّ ولكنَّني لا أذكرُ اسمَه، فهل هو موجودٌ الآن؟

فأجابته بسؤال: هل أنت الدكتور "ثابت راضي"؟

فأجاب: نعم.

فسألته ثانيًا: جرَّاحُ المخِّ والأعصاب؟

فأجاب: نعم.

ثمَّ سألته ثالثًا: من مصر؟

فأجاب: أجل.

فقالت له: توجدُ رسالةٌ لك، ثمَّ أخرجت له ظرفًا من درجِ المكتبِ. فأخذ منها الظرفَ وهَمَّ بفتحِه إلا أنها استأذنته بأنَّها تريدُ إغلاقَ المتجرِ حيثُ أنَّ موعدَ الإغلاقِ هو عندَ الرابعةِ عصرًا، فسألها إن كان يستطيع الاتصالَ بها في حالة رغبته في الاستفسار عن شيءٍ ما من محتوى الرسالةِ، فأجابته بأنَّها لا تستطيع أن تفيدَه بأيِّ شيءٍ وليس بمقدورها الردُّ على أيِّ سؤالٍ، وأنَّ كلَّ ما يحتاجُ معرفتَه موجودٌ داخلَ هذا الظرفِ واستأذنته ثمَّ أغلقت المتجر.

أخذ "ثابت" الظرفَ ومشى به مسرعًا حتى وصل إلى بدايةِ الشارع، وهو نفسُ المكانِ الذي شاهد منه النورَ الخافتَ للمتجرِ

الصغيرِ في المساءِ منذُ يومين، فوجد هناك كرسيًّا خشبيًّا بجانبِ إحدى الأشجارِ فجلس عليه، ثمَّ فتح الظرفَ فوجد ورقةً بيضاء، فأخذ يجول بعينيه في الورقةِ لعلَّه يجد شيئًا، فوجد جملةً واحدةً مكتوبةً في آخرِ الورقة:

"ابحث داخلَ عقلِك وروحِك وجسدِك عن مواطنِ قوتِك، اكتشفها وأظهرها واستخدمها في تغييرِ نفسِك إلى الأفضلِ جاعلًا طموحَك كبيرًا وعملَك جادًا ذكيًّا، وستكتشفُ أنَّ قدراتِك أكبرُ ممَّا تتخيلُ وسيكونُ مستقبلُك أفضلَ ممَّا تحلمُ به"...

انتهت الرسالة!!

obeikan.com

الفهرس:

الإهداء..... ٥
المقدمة..... ٧
فكرة..... ١١
خوف من الحلم..... ٢٥
مسافر في بحور النفس..... ٣٩
يوم من الماضي..... ٥١
حب في المنطقة الرمادية..... ٦٧
الجريمة..... ٨١
لقاء ثانٍ..... ٩٣
صداقةٌ مع إيقافِ التنفيذ..... ١٠٥
خطوات إلى الخلف..... ١١٩
الوداع..... ١٣٣
صداع ونظارتان..... ١٤١
الظِّل..... ١٥٣
الحب المستحيل..... ١٦٧
الحقيقة والمكتبة ١٨٩
الكاميرا..... ٢١٣

obeikan.com